# أحلامنا التي تزهر..

(مجموعة قصصية)

اسم الكتاب: أحلامنا التي تزهر.. (مجموعة قصصية)

التأليف: وصال تقة

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 104 صفحة

عدد الملازم: 6.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 259 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 535 - 3

دار البشير للثقافة والعلوم

1437 هـ
2016م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 0115280653 - 01012355714

# أحلامنا التي تزهر..

## (مجموعة قصصية)

وصال تقة

دار البشير
للثقافة والعلوم

# إهداء

إلى طيف قد أينع..

فأنبت حلمًا وعقود زنابق..

لكنه أبى إلا أن يبقى طيفًا وحلمًا..

إلى كل من دثَّر روحه الشاحبة الممتقعة..

بنسيج الأحلام..

# مقدمة

أحلامنا التي تزهر..

قد لا تعدو أحيانًا أن تكون سوى بسمة رفيفة..

أو عودةٍ حثيثة للحياة..

أو رحيلٍ ينهي حياة البؤس والشقاء..

# 1 – عودة

افترشت الذكرى حصيرًا فوق عتبة بيتها، ورمش العين لا يزفّ لها هطولًا. رُقع ثوبها حاكتها أياد لوحت يومًا بالوداع، وتشبثت بقرارها، وما خانت الوعد. وشيبات رأسها، مخزن اللوعات، لوّنها الرحيل..

كل مزعة في جسدها تئن من دوار شبيه بدوار البحر. كل الكون حولها صار بحرًا لجيًّا لا قوارب عليه تحمل حقائب العائدين، ولا أرصفة تستقبل رسائلهم. يشتد الدوار فتهمّ بالغثيان، لكن لحظة الضعف المهيبة التي كانت تخشاها قبل أن يسافر ابنها ويتركها للوحدة ترضع جفونها، لم يعد لها الحق فيها، لا حق لها في الترنح ولا في الغثيان ولا حتى في إغفاءة تحت أشعة شمس تموز الملتهبة تغفو معها الروح..

هكذا هي كل صباح منذ عشر سنوات، تفترش الحنين بالباب، وعيناها معلقتان بأرجوحة شوق لا تستكين، ولا يطردها عن عتبتها سوى رجفة الليل، تلملم معها بقاياها وتنسحب في انتظار يوم جديد، تدفن حضورَه في تفاصيل السواد، وتغيّب معها جزءًا جديدًا من حلمها. تستسلم لسدول الليل تطوي به مد وجزر الأيام، علها تستفيق ذات صباح على صوته الذي

استلبه النسيان فلم تعد تذكر نبرته. لا تذكر سوى قهقهته وهي تناغيه وتدغدغه، وتحكي له تلك الحكايات التي أمضت ردحًا من زمن تحفظها وتهيئها استقبالًا له..

تتذكر تلك المسافات التي كانت تتكبدها كي تصل إلى بيت «العواذة»، محملة في كل مرة بالسكر والزيت وديك من أسمن ما يضمه خمها الكبير، تستشفي من عقم صيّرها مرتعًا لصولة غيلان حماتها إذا ما غضبت، وسببًا وجيهًا لتؤُزَّ ابنها على الزواج من ابنة خالته التي فضَّل عنها زوجه العقيم..

يفتر ثغرها عن ابتسامة حزينة وهي تتذكر استماتة زوجها في الدفاع عنها، وكيف وقف في وجه كل العائلة مهددًا بالرحيل إذا ما استمروا في ملاحقتها بإهاناتهم المستمرة..

تسافر بها الذكرى.. تهاجر بها عبر المدى لترسو بها قبالة بسمة عيني طفلها الوليد الرافل في حلل الأشواق، وإشراقة وجهه الملائكي وتغريدته الصباحية التي كانت تقتحم خفقها كما يقتحم المطر شقوق الأرض الحزينة. لم يكن مثل باقي أقرانه، كان ينمو بالليل وبالنهار ويشتد عوده تحت عينيها الدافئتين، قد حظي بحبها وحب جدته، ونال كل الدلال من أعمامه، وسجن قلب أبيه حينما كان قطعة لحم غضة قبل أن تنادي المقاومة لمواجهة غاشم نهب الشجر والحجر وأراد اقتلاع الرموش من العيون. يتحجر الدمع الجافل في مقلتيها وهي ترى متراس الباب واقفًا دون نبأ يُتم

ابنها، فتأبى الأبواب إلا أن تُفتح لتنعي لها عشق السنين. تتناوب عيناها في دهشة بين قماط في يديها كانت تهيئ به الوليد للمنام، وبين إطراقة رأس القادم بمراسيل الأحزان:

- «أو قد مات؟..

- قتلوه، قتله الأوباش الكفرة..

- ماذا سأصنع بي الآن؟..

وهذا الوليد؟..

وحلمنا الذي روينا عوّاذه، أخفيناه تحت الدراق عن العيون؟..

وريح الصبا التي وعدناها ألا نغيب؟»..

لم يتنامَ إلى سمعها بقية كلام الطلل الماثل أمامها محني الرأس متأسفًا، لايجرؤ أن ينظر في عينيها. وكيف ينظر إليها وقد جاءها يقطف أحلامها وينفث وريقات الزنابق التي نبتت في عينيها تنتظر عودة الشتاء!..

تشعبت في لحظة كل طُرقات الرحيل حولها، كل أولئك الذين وعدوها بالبقاء قد رحلوا..

وحتى بغاثها الشدي الذي سقت زغبه دموعها حتى نمت وترعرعت، فَرَدَها حينما طال له الجناح باحثًا عنه وراء المدى. لم يتشبث بالجذور سواها، لم يبق هنا سواها..

تطويها الساعات تسلمها للشهور، وحصيرتها المفروشة على حصائد الانتظار قد جفت وتكسرت أعوادها، وصارت تحمل بين شقوقها كل لحظة انتظار، وكل لحظة انكسار، وكل لحظة احتضار..

كل من حولها كانوا يموتون، كل من كان شيبهم بعدد شيبات رأسها قد ماتوا، احتضروا ذات وجع ثم اختصروا الألم في شهقة ووداع، ثم ماتوا. وهي مازالت هنا تموت في اليوم مليون مرة دون خروج حقيقي للروح. لربما لو يئست لكانت ماتت، لكانت ارتاحت، لكنها مازالت وفية لعهد قطعته على نفسها.. أن تشهق ذات صباح شهقة واحدة لمرآه، تبتسم، ثم تسلم بقايا الروح..

في ذلك المساء.. كان الليل فارغًا فاه، يلتهم ذبالات المصابيح المشتتة هنا وهناك، والزمهرير يقتلع أغصان الشجر، ويخلع عن الزنابق قلبها فيصيرها نثارًا. أخرج الفراغ أنيابه لاهثًا، والريح العابثة تئن وتعول في أضلاعها، وهذا الصباح العصي يأبى أن يستفيق. لم تكن تعلم أكان البرد الذي يلفح وجهها قادمًا من شقوق الباب، أم من شقوق روحها تصب في عينيها وأذنيها ذعرًا ورهبة غير تلك التي اعتادت عليها. مطر غزير بالباب يتحين الاقتحام، وصحراء مستقحلة في أعماقها، وهذا الخوف العنيد يبعثرها، ينفضها، يخنقها..

تصارع ماردًا يحاول كتم أنفاسها، تحاول مهادنته، تتوسل إليه أن

يمهلها، لكنه ماضٍ لا يلتفت لهمهمتها..

التصقت بالجدار تحتمي به، تحتمي ببرودته من حرارة جسمها، ومن عنفوانه من ضعف أطرافها المتهاوية، وهذا الصبح العنيد لا يأتي..

رائحة تعبر المدى لتستقر في أنفها، تنتفض قليلًا.. تصفر وجنتاها ثم تحمر.. تشرق عيناها .. تناشد الصبح أن يسفر.. تهيئ شهقتها وابتسامتها لموعد قد صار وشيكًا.. طَرَقات متواصلة بالباب ولا من يفتح.. لعله وهْم.. بل هي رائحته.. رائحة الطفل الذي كانت تُحكم قماطه، فلما شبّ؛ مزقه وهام على وجهه في بلاد بعيدة لا تعلم لها اسمًا. أكمل دراسته هناك، وتزوج هناك، وأنجب دون أن تستطيع أن تنطق أسماء زوجته وأبنائه لعجمة النداء.. دون أن تستطيع مرة أخرى أن تحضنه وأن تلمس شعره الأسود وأن تقبض على يديه الناعمتين بأخاديد الزمان المحفورة على كفها..

رسم حياته، ووجد ذاته التائهة عنه خلف البحر.. وترك العجوز للوحدة وللانتظار يتناوبان على مضغ جفونها..

يتنامى صوت الطَّرْق وما من مجيب:

- أمي، أمي، أنا عمر..

تنبت بين نتوء وجهها المحتضر ابتسامة واهنة مترددة..

لعله هذا الخواء يعوي فيذكر اسمه، بل هو هو، يناديها، بل الرياح، أو الوهم،

أو حرارة الشوق، أو هذيان روحها بسبب هذا المارد المتحين أن يخنقها..

زحفت ببطء من فراشها البارد، تلطخ وجهها بطين الأرض المبتلة من أثر المطر المقتحم، البلل يعطل حركتها ويبطئ زحفها، كان الصبح قد تهيأ لأن يطل، وعبق المطر المختلط برائحة عمر تخترق أنفها، تزحف والصبح يتململ..

يختفي الصوت فجأة، فتستكين.. كاستراحة مقاتل، تستسلم لطين الأرض..

- أمي، افتحي الباب. أنا عمر..

تعجز كفها النحيلة الشاحبة أن تصل إلى المتراس..

يسكن الصوت مرة أخرى فتستكين..

خربشة خلف الباب كقدمي قطة تحاول الاقتحام، أو هكذا كان يتنامى إليها طرقه البارد..

تتمدد..

تتسلق في خشب الباب كزاحف..

تتمطط..

تعلو الطَّرَقات والنداء شيئًا فشيئًا..

تتهاوى يداها وترتطمان بالباب..

تعيد الكرّة..تحملهما في جهد..

صليل المتراس يخرق السكون..

يسفر الفجر فجأة ومعه وجه عمر..

تبتسم لمرآه..

تشهق شهقة واحدة..

وتسلم بقايا الروح..

# 2 – مهر

أصبحتُ أخيرًا أستطيع الوقوف أمام محلات الملابس الفاخرة ومتاجر المجوهرات الراقية؛ دون أن أضطر إلى مصمصة شفتي، وإصعاد زفرة أسى وحرقة على جيبي الفارغ، وعلى انهزام أنوثتي ورغبتي في الحصول على ما ترتديه النساء من حولي، أمام الفواتير المنتظرة والديون المتراكمة، بل أصبحت أستطيع أيضًا وُلوجها، فيستقبلني الباعة بحفاوة، ويعرضون علي– كما كل الزبونات المهمات – كل تلك القطع الفنية الفاخرة الفريدة المدخرة في الدواليب والخزائن للنساء اللاتي تُقَدِّر حافظات نقودهن ودفاتر شيكاتهن معايير الجمال..

غيرتُ سيارتي المهترئة القديمة، وصرت أقطن في حي أصادف فيه كل يوم السيارات الدبلوماسية والشخصيات التي ترونها في نشرات الأخبار وفي الحوارات الاقتصادية والسياسية..

منذ ست سنوات، كنت قد قدمت مشروعي الجديد المتميز للشركة التي أعمل بها ودافعت عنه بشكل مذهل، كما تدافع أم عن فلذة كبدها؛ فبسببه أَخَّرت كثيرًا من أحلامي من بينها أن تصير لي فلذات كبد، ليس

لأنني عقيم، ولا لأنني غير راغبة في الولد؛ ولكن لأنني لم أتزوج..

لم أتزوج بعد..

وليس معنى هذا أنني قد حُرمت الأمومة أو لذة ألم المخاض، فقد كانت الأفكار للتحضير لمشروعي كي يخرج أنيقًا متكاملًا، ترفس بطني، تمامًا كما يفعل الجنين ببطن أمه، وآلام الظهر التي تشتكي منها الحوامل عادة كنت أيضًا أشتكي منها من طول قعدتي على الكرسي، وكنت أتصبب عرقًا وأتمخض مع ولادة كل فكرة. أنجبت ولدًا عملاقًا أسميته مشروعًا، وكنت– من محبتي له، ومن شوقي للأولاد – جد متميزة في العرض، ففاز على باقي المشاريع، وصرت بذلك مديرة للشركة..

رموش عيني المتساقطة من كثرة السهر، وشيبات شعري المشتعلة قبل أوان الاشتعال، وتلك الهالات السوداء حول عيني، والتي لم تنفع معها مستحضرات التجميل، كلها تشهد أنني أستحق فعلًا أن أصبح مديرة. كم كابدت وأنا أحرم نفسي النوم والفسح ولقاء الصديقات، حينما واصلت دراستي بالموازاة مع العمل. كنت أصرف جزءًا من راتبي على استكمال دراستي، في حين قسمت ما تبقى منه بين إخوتي ومصاريف البيت والمعيشة وأدوية الاكتئاب التي لم تبرحني يومًا بسبب تراكم المشاكل والمسئوليات، وتزايد طلبات أمي وإخوتي، فضحيت طيلة عشر سنوات

بمظهري، واكتفيت ببعض ما أحصل عليه من ملابس أيام التخفيضات..

ها أنا ذي الآن عضو في عدد من أندية الرياضة التي كنت لا أعلم عن أمرها إلا من الأفلام والمجلات، وصرت أجلس في محلات التجميل مادة رأسي ويدي وقدمي لمن يحملن عني هم الاعتناء بنفسي، وصرت حينما أحدث تلك النساء اللائي اعتدن على الحضور مصحوبات بسائقهن الخاص؛ أحدثهن وأنا أضع عيني في أعينهن كأنما أستفزهن للانتباه إلى خاتم الألماس الذي يزين أصبعي، وساعة الكارتييه أو الروليكس التي تبرق عينها فوق معصمي، ولكي أثبت لهن أنني هنا، في هذا المطعم الفاخر أو في هذا الصالون الراقي عن جدارة واستحقاق، فأنا مديرة شركة..

أصبحت أكلف كاتبتي الخاصة بتصفح الجرائد ومواقع النت للحصول على معلومات كافية عن البلد الذي سأمضي به عطلتي، فيُحجَز لي بمكالمة هاتفية في أرقى النزل، وأرجع محملة بالهدايا لكل أفراد العائلة، وأخطط في طريق العودة للعطلة المقبلة..

***

تأخرت رحلتي بنصف ساعة بسبب سوء الأحوال الجوية، فجلست فوق كرسي أنتظر، لم أكن مستعجلة فأنا في عطلة، ثم إن ممارسة طقوس انتظار الطائرة بتصفح المجلات والقضم من أصبع الشوكولا والعبِّ من

عبوة المشروب الغازي، بل حتى ترتيب الحقائب قبلها داخل عندي في مسمى الاستمتاع بالعطلة..

ليس لي من قريب ينتظرني هناك، أخشى عليه من القلق بسبب تأخري، وأمي قد اعتادت ألا أطمئنها عليّ إلا في اليوم الموالي للسفر، ثم إن الانتظار يحررني من السرعة ومن تلك الدوامة التي تبتلعني طيلة أيام السنة، فأنسى نفسي على الكرسي لأنني رفيقة الانتظار الحميمة، ويتعطل عندي الإحساس بالوقت إلى أن يباغتني صوت المذيعة الناعم وهي تخبرنا بضرورة التوجه إلى الطائرة..

صوت شخير الرجل العجوز الجالس بالقرب مني يزعجني، أقلب صفحات المجلة بتوتر عسى رفيف ورقها يحجب عني سماع تلك السمفونية العجيبة، لا أستطيع معاودة الالتفات إليه، فقد أحرجت نفسي وأحرجت زوجته حينما التقت عيناي بعينيها فابتسمتْ في ارتباك تهز رأسها وكأنها تعتذر عنه. طويت المجلة ووضعتها فوق الكرسي مكاني ثم قمت أتجول في القاعة الممتدة العريضة..

لمحتها لكنني كذبت عيني، لم تكن هي، بل هي. شيء ما دفعني لأدقق النظر، «نجوى» زميلة الدراسة ترفل في عباءتها وخمارها السوداوين، نفس الملامح الطفولية الجميلة، بل ازدادت بهاء وجمالًا، ووجهها الذي كان

عيبه طوله من النحافة؛ قد استدار كقمر مكتمل، بل حتى نور وجهها نور نجم مضيء. مازالت تحتفظ بنفس المشية الأنثوية تجر رجلًا برجل، محنية الرأس في حياء. لم أعلم كم مضى من الزمن على آخر لقاء بها ولا كم مضى من الوقت وأنا أحملق فيها متابعة خطواتها وحركاتها. نفس الابتسامة البريئة ونفس النظرة الحالمة ونفس الرصانة والتؤدة التي تعرفها من خطو المرأة قبل كلامها..

انتبهت لحذائها الفاخر، ثم أطللت على قدمي أحدق في حذائي الرياضي الثمين الذي اشتريته من باريس آخر سفر. كنت أول مرة أرتديه، لكنه بدا أمام حذائها الأنثوي الأنيق مهترئًا متآكلًا. لمحت صدفة سروالي الجينز وأنا أصعد عيني لأرى معطفي الجلدي الفاخر، فركت عيني بشدة فقد رأيت أنثى مختبئة في ملابس ذكورية محضة، ولولا وجود الناس بالقرب لصفعت نفسي. متى سأقلع عن مقارنة نفسي بها؟؟ كانت دائمًا متفوقة علي في كل شيء، كانت مثالًا للأنوثة، وكانت ملابسي العملية تجعل مني رجلًا لولا شعري المنساب على كتفي. ما الذي ينقصني الآن حتى أغيض في مقارنة شكلية بين عباءة لا تعدو أن تكون عباءة مهما كان ثمنها، وبين ملابسي «السينيي» باهضة الثمن، ثمن معطفي فقط يعدل أجرة زوجها خلال شهرين أو أكثر..

تشجعت وعزمت على أن أكلمها، استجمعت كل عبارات التفاخر في رأسي، ثم ابتسمت في زهو، وأنا أتذكر أنها قد انقطعت عن الدراسة بسبب الزواج، وبأن ولاداتها المتكررة جعلتها تنسى أمر العمل، كما كنت أعلم- حسب ما حكته لي زميلة قديمة- أن زوجها قد اشترط عليها منذ البداية ألا تعمل لأنه ميسور. أشرق وجهي بابتسامة أخرى وأنا أتذكر عمل زوجها «الميسور»، وبأنها كانت تعيش في شقة مستأجرة، وبأنه لم يستطع- في بداية زواجهما- أن يوفر لها شقة تمليك، ثم تذكرت بسرعة أنني مديرة شركة، وبأنني أمتلك بدل الشقة شققًا. تقدمت خطوة في زهو، فإذا بي أُصفع بتلك العربة التي تدفعها؛ حيث طفلان يبدو أنهما توأم، في حين تكفل زوجها بدفع حقيبة عملاقة من تلك التي لا نراها إلا بالمطارات. أغمضت عيني لحظة أفتش في زوايا مخيلتي عن عربة شبيهة عندي، فتراءت لي سيارتي الفاخرة. ابتسمت مطمئنة، وفتحت عيني لينقبض صدري مرة أخرى، وأنا أراها تتوقف لتحزم برفق رباط طفلها المتدلي من العربة، والذي كاد أن يسقط. يبدو أنه ذكر فقد كان كثير الحركة ويسبح في ملابس ذات لون سماوي مبهج، في حين كانت شريكته في العربة أنثى لها من ملامح أمها الكثير كزهرة وردية متكئة في هدوء- كما هدوء أمها- ترقب المارة مبتسمة. شحب لوني فجأة وكدت أتراجع عن محادثتها وأنا أرى زوجها الوقور ذا اللحية السوداء المشوبة بقليل شيب، يوقف الحقيبة بقرب سارية ويعود

إليها إذ تنبه لتخلفها عنه، تابعت في غيرة وحسرة يده وهو يساعدها في ربط حزام الطفل الشقي ليطبع قبلة على وجنته وهو يحدثه كما يحدث الكبار، هممت بالرجوع القهقرى، مهزومة، مقهورة، لولا أنني تذكرت فجأة أنه في الوقت الذي كانت هي فيه تنجب أولادًا، كنت أنا أنجب المشاريع، وقد أصبحت من ذوات الأملاك، وبأن وحدها رؤية سيارتي تكفي لتكبدها خسارة مقارنة. أنا الآن مديرة شركة مشهورة وذات شهادة عليا وصاحبة أموال وأملاك..

تقدمت في زهو ثم ناديتها، حملقت فيّ مليًّا قبل أن تتعرف علي، ثم أشرق محياها بابتسامة، نظرتْ إلى زوجها تستأذنه في الانتباه للأطفال، فرد عليها بابتسامة مطَمْئِنة وهزة رأس خفيفة، ألقى السلام علي من بعيد، ليبتعد والعربة قليلًا موليًا ظهره لنا..

تلهفت لمعرفة أخبارها، أو بالأحرى لمعرفتها أخباري، فبادرتها بالسؤال علني أحظى أنا أيضًا بسؤالها كي أتيه وأنشد على مسامعها قصائد الفخر والزهو، علني أكبدها خسارة كما تلك التي ما تفتأ تهزمني بها..

علمت منها أنها أم لأربعة أطفال، وعلمت أيضًا أنها قد كانت في رحلة راحة واستمتاع بعدما ناقشت رسالة الدكتوراه وحصلت عليها بميزة جيد جدًّا، فما كان من زوجها سوى أن كافأ تميزها وكده في متابعتها ودفعها

للتفوق برحلة للاحتفال بثمار العمل الدءوب. زممت شفتي وكظمت تغيظي بمشقة كي لا تكتشف حنقي، وفي لحظة مزقت شواهدي وحطمت سيارتي وأتلفت ممتلكاتي ورميت بكل مجوهراتي وأنا أرقب بسمتها الهادئة الواثقة، وعلامات السعادة والطموح المرسومة بين ثنايا شفتيها، ورنين كلمة «دكتوراه» يخرق مسامعي..

علا صوت المذيعة تخبرنا بضرورة الالتحاق بالطائرة، ومعه صوت زوجها يحثها على الإسراع، فخاب آخر أمل لي في رد على سؤال كان سيشبع نهمي في الافتخار، وغاض حلمي في جعلها تشرب من نفس الكأس الذي أوجعني به صدى كلمة «دكتوراه» المتردد على مسامعي، بجعلها تنصت إلي في اهتمام وتتابع في غيرة حروف تلك العبارة الموءودة على شفتي:

«أنا الآن مديرة شركة»..

# 3 – شيزوفرينيا

الليل هذا المساء حالك، أحلك من أي يوم مضى، وزمهرير يناير ينفذ من ثقوب الجلد مباشرة إلى ما تبقى من عظام..

الريح العاوية تصك آذان النوافذ والأبواب، فتئن البراغي وتتململ المتارس معولة. أضع أناملي في ثقب أذني وأغمض عيني؛ عساني أتحرر من هذا الضجيج المتواطئ مع الأنين الفتاك الذي يعول داخلي..

لا أذكر كم من الوقت مضى وأنا أتحسس كل لحظةٍ الموتَ القابع في أطرافي، يتقلص، ثم يتمدد فيّ كنفثة مِدخنة في يوم صاقع تسدر في الفضاء ليتحد دخانها والضباب. مدة لا تحتسب بالدقائق والساعات ولا بالأيام والشهور، إنما بعدد حبات «الليكزوميل» العالقة بين خلايا دمي، وجرعات «السوليبريد» الذي أصبح من مدة يحمل عن الدوبامين هم التفاعل والتأثير على أحاسيسي الغافية. أرقبه في هدوء مفتعل، يسري في جسمي، يتجول بين كتلة عظامي، حتى إذا ما أعياه العويل المستفحل في أحشائي، عاد أدراجه ليتكوم في قدمي مرة أخرى في انتظار جولة جديدة قد تكون الأخيرة، وفي انتظار هذا القرار الحاسم..

أستدعي كل يوم جديد ورقة وقلمًا؛ كي أكتب وصيتي، تلك التي لم يكتب لها أن تكتمل بعد، مادام هذا الموت المحدق بي لم يأخذ بعد موقفًا شجاعًا فيكبدني خسارة هزيمة، وأكبده خسارة استسلام، وأنا أحدجه بعيني الواثقة في أنها النهاية..

أن تطيل الوقوف بين يدي الأطلال، وتدمن المثول مصلوبًا على أعتاب المستحيل، ثم تمضي ما تبقى من شيب هاربًا من كل شيء بدءًا بذاتك..

«لا تصالح».. والزمن الأعرج لن يستقيم..

لن يستقيم، ولن يستقيم عودك وظهرك، ولن يستقيم قلبك، ولن تستقيم لك فيك هذه الحياة..

- موتي. الآن، الآن. هي ذي فرصتك، فما عاد منك ما تستلذ به الحياة، انتهى دورك في المسرحية؛ فلملمي مساحيقك وأقنعتك وكل الأغراض، موتي! الآن..

أستسلم لتلك الغمغمة، تصقع أطرافي ويمتقع لوني ويبيض لساني ويشحب كل شيء حولي.. يتمدد الموت في أطراف رجلي.. يخترق الأصابع ويلتف بالساق.. سروة تخترق ضلوعي.. عطش كالح يُجحظ عيني.. يسكن كل شيء حولي.. وأستسلم..

أنتظر الشهقة الأخيرة..

– ألم تموتي بعد؟..

– أحاول، لحظة فقط، سأموت حالًا..

تقاطعني زمجرته:..

– كم تتقنين الكلام.. لا شيء بحق تفعلينه.. ليس لي منك سوى الكلام.. كل يوم تعدينني ولا وفاء.. موتي هيا!!

أتحايل على تلك الشهقة التي منها الخلاص، خلاصه مني، خلاصي منه، خلاصي مني..

لم أعد أعلم إن كنت أنا أيضًا قد اخترت هذه النهاية الآن، لكنني مدفوعة من هذه الغمغمة المقيتة إلى أن أتمم الخلاص..

يكفيك أن تسمح لهم يومًا بأن يخططوا لك ما يجب أن تكون وكيف يجب أن تعيش؛ كي تمتد طموحاتهم للتخطيط لك كي تنهي حياتك بنفسك؛ دون أن تتلطخ أيديهم، يقتلون روحك ويغتسلون من الجريمة ولا أحد يستطيع إثبات التهمة عليهم..

عادة، أحسني ميتة وأنا أتحدث إن تحدثت، وأنا بالمطبخ أهيئ لهم ما لهم منه الحياة، وأنا في العمل، أحسني هيكلًا عظميًّا أو شبحًا عاد ليكمل رحلة الموت في حياة شبيهة بالموت، لم يعد يميز بينها وبين القبور سوى تلك الزمجرات المرعبة التي تأمرني أن أرحل، فأتذكر أنني فعلًا ما زلت

هنا، وأنني لم أرحل، وأنني لم أدفن بعد، وأنني مازلت على قيد الأوجاع..

هذه الليلة وعلى خلاف كل ليلة، تلك الزفرات المنبعثة من صدري تلهيني عن الانسجام الكلي بالمشهد، تنبهني ألا ألتحم وذرات الموت فأموت بحق..

وكأن صوته القادم من غياهب الجحيم يستفزني كي أتمرد..

أطرافي الصاقعة غرقت فجأة في الحمى، في تلك الحمى التي تحاصرنا عادة ونحن بين براثن الحيرة وشباك الضيق، أعراض الشيزوفرينيا..

تعطل فجأة العقل عندي، ثم هجمت كل فساطيط الأفكار على جمجمتي النحيلة، وبرحتني فجأة رعشة الموت..

شبحه ما زال يرقص أمامي، وكلماته تتشظى بالقرب من مسامعي، تتودد لها، تريد أن تقتحمها فلا تقتحمها..

- هيا، موتي!..

ألف يدي حولي، أحاول أن أنقذني منه، مني، ومن هذا المصير..

الغرفة الباردة حولي صارت كما التنور، اشتعلت لحظة توهج تلك العبارة في أحشائي، تلك الصرخة التي قلبتُ بها خطوط النهاية، ولهيب عبارة الخلاص يؤجج فيَّ براكين الثورة:..

«سأكون، وإلا فلست أستحق أن أكون»..

عبارة أختم بها هذا القرار..

«أنا الهاربة الماثلة قرب مقصلة المستحيل، قررت الآن وأنا في كامل انفصامي، وجسدي في كامل جوعه للحياة، وعيني في كامل شوقها للحرية والانعتاق، قد قررت في هذه اللحظات التاريخية المشهودة، ألا أموت..»..

وقعت قراري، رميت به على وجهه اللعين، ثم انزويت قرب رأس سريري، متكومة كقطة مرعوبة قد فرت من عبث كفوف الصغار، وهلوستي ما زالت تصاحبني:..

«لن أموت، لا. لن أموت!»..

أكررها في خوف.. في رجفة.. في رعشة المرعوبين من خناجر الموت.. خوف من المفروض ألا يلاحق من اختاروا البقاء.. لكنني كنت بحق خائفة..

أبحث في خلايا ذاكرتي عن السبب، فتقف عيناي مشدوهتين لخطأ ارتكبته من غير قصد في كتابة القرار.. الحياة ليست دائمًا مقابلًا للموت.. ألا تموت، لا يعني دائمًا أن تحيا..

انتشلتني من لجة أفكاري خطوات واثقة كانت تتجه صوبي.. رجلان.. أربعة.. أرجل عديدة كخطى المبعوثين من القبور.. ارتجفت وخلتها نهايتي.. قد جاءوا كي يحققوا رغبته الملحة.. قد جاءوا ينتقمون من قراري.. كفي ألقم بها لساني، وعيناي الجاحظتان تعطلت بهما لغة

الكلام.. لغة التوسل.. لغة الاستعطاف.. لم أر وجوههم، لكنني كنت أعلم أن خطاهم الوئيدة تستشرفني.. التصقتُ أكثر برأس السرير وارتطم رأسي بالجدار خلفي.. استسلمت للخوف وما استسلمت.. أحدثهم صامتة فلا يفهمون همهمتي..

- ماذا تريدون مني؟ ألأنني قررت ألا أموت؟..

الحمى تأكل جسدي، وبريق عيني الجاحظتين يثبتني، يخبرني أنني ما أخطأت وأنه من حقي ألا أموت، ألا أموت بقرار منه هو على الخصوص..

لا شيء يثنيهم عني، وبت على أهبة للاستسلام..

سأموت الآن منتصرة.. سأموت بعدما اخترت ألا أموت..

امتدت يد تسلمني قراري.. لم أكن مستعدة لأن أمزقه.. لن أفعل.. لن أوقع لهم على موتي..

كتفت يدي، وزممت فمي، وكلمات تود لو تند، لكنني أقمعها..

- خذي! قرارك مبتور خديج.. عدليه:

"قررت ألا أموت.. وأن أفتح صدري للحياة.."

# 4 – انتقام

سعاله يخترق المدى عبر ضلوعه البارزة تحت قميصه الممزق، فيبدو كأنه سيبصق رئتيه، وحروفه المتشظية المترنحة المتهدجة كحفيف كير تمزع حباله الصوتية المنبعث صداها من بين ثنايا كيس بلاستيكي أسود مملوء بمحلول الكحول، فتخترقني شتائمه وتعلق في أحشائي كرمح مكسور..

أغلقت باب السيارة وقد انخرطت في خطاي مبتعدًا عن الرصيف، لكن طيفه استمر في ملاحقتي، وصورته بدت منقوشة في بؤبؤي. غابت عني تفاصيل الشتائم، لكن صدى عبارته ونبرة صوته مازالت تخترق أذني. نظراته تحدجني خلفي، تلاحق خطواتي، تخترق معطفي خلف ظهري. تعثرت بعتبة مدخل البناية، ابتسمت للحارس ابتسامة اعتدت أن أوزعها على بائعي الخضار وصغار العمال وعلى الحراس وعلى كل ضعيف مغلوب محني الظهر من لهطات الحياة..

لهطات يفهمها من صفعته ذات وجع فتدفقت في شرايينه دماء الثأر من استبدادها السرمدي. أفهم تمامًا تلك البسمة التي يردون بها على ابتسامتي. أعرفها وأفهمها وأحس بها، تلك المنبعثة من التوابيت المحنطة لآمالهم، من الصناديق المقفلة على أوجاعهم. هزة رأس وتحية من رجل وسيم برباط عنق ومعطف طويل ونظارة طبية ثمينة ومفاتيح سيارة وهاتف محمول في حجم مذكرة كفيلة بأن ترسم على شفاههم بريق بسمة، تذكرهم بأنهم موجودون، وبأن دورهم في الحياة لا يقل عن أدوار هؤلاء الرافلين في النعيم، وركضهم بحثًا عن الراحة لا يقل سعارًا عنهم، فالكل ها هنا يلهث كي يصل يومًا، الكل ها هنا يجوع من أجل أن يشبع يومًا، ويتعب من أجل أن يهنأ يومًا ويزاول الفشل كي ينجح يومًا..

ويمارس طقوس الفناء كي ينبت يومًا من جديد، دون أن يأتي على الحقيقة ذلك اليوم المنشود..

الكل هنا متشابهون بدرجات متفاوتة من السعار والحمى واللهث.. الكل ها هنا فعلًا يلهثون..

دلفت إلى مكتب المدير أحث الخطى، فقد تأخرت عن موعدي معه بخمس دقائق بسبب زحام المرور في هذه اللحظات الأخيرة من نهاية الدوام الإداري. كان مشغولًا بمكالمة هاتفية، مد يده إليَّ مصافحًا وأشار

إليّ أن أجلس، غبت لحظات عن المكتب مستغلًا طول المكالمة، تائهًا بين أسمال الرجل العجوز ذي الشعر الرمادي الكثيف المتمرد، ملامحه الشيطانية، لسانه البذيء، صقيع الرصيف الناخر في بقايا جسده، غمغمته، سعاله، نظراته المنطفئة، وصندوق تلميع الأحذية الرابض أمامه، الملقى مثله على الرصيف..

نظرت إلى حذائي، لم يكن محتاجًا إلى تلميع، باغتني فجأة وجهه الكئيب منبعثًا من صفحة نعلي كانعكاسة صورة على المرآة. أخذت ذهني رعشة كتلك الرعشات التي تصيبنا من محاولة فك شفرة لغز غريب متعب. أخرجت من جيبي منديلًا ورقيًّا وانحنيت كي أمسح تلك الصورة المرسومة بدقة فوق حذائي. عبثًا أمسحها، فتتكاثف شعرات رأسه قرب الشسع، تختلط بثقوبه، وتبرق عيناه الجاحظتان كعيني أفعى تحملق في توعد أنني أبيت أن أسلمه درهمًا وأمنحه فرصة ملء رئتيه بمزيد كحول. عبثًا أمسح هذا البؤس الذي جثم في لحظة على وجه نعلي، يتنامى إليّ اصطكاك أسنانه وسبابه المتشظي من بين لعابه المتطاير، تغيب عني ملامح وجهه فجأة، وأغيب أنا في تفاصيل صوته الباغم الحامل بين نتوئه ألف سبب كي أطيل المكوث بالقرب من عالمه أرقب رأسه الموسد لعتبة باب متجر مغلق، واستلقاءه على الأرض منبطحًا على غير عادة ماسحي

الأحذية المنتشرين قربه، القاعدين في سكون محمل بالأسرار على كراسيهم الخشبية العتيقة يمارسون طقوس الانتظار. جسده المتهاوي كان غير قادر على حمل منكبيه، ولم يستطع منكباه أن يحملا رأسه؛ فالتوى عنقه يسنده تارة للجدار وتارة لعتبة الباب، يشتم ويتوعد وتسفر بقايا أسنانه السوداء عن كلام مبهم حانق يقيئه بين كل غيبوبة واستفاقة كهلوسة مريض من أثر البنج..

حملتني عبارات الترحيب من المدير إلى المكتب مرة أخرى، طال كلامنا، وأنهيت المقابلة بعد ساعة، ثم خرجت لا ألوي على شيء، باحثًا عن الطيف ذي السر الغامض. جثته الخامدة كانت تغط في شخير مريع، وكأنه يمارس هوايته المفضلة في النفخ في الكيس حتى وهو نائم. لم أعلم كم من الوقت مضى على تسمري أمامه، أراقب تفاصيله في ذهول. تنفصل الصورة، تتشتت، تتناثر، ثم كلعبة التجميع تتشكل مرة أخرى لتصنع أمام عيني ذلك الطيف الخمسيني الذي كانت ترتعد مفاصلي ويتوقف نبضي لسماع صلصلة مفاتيحه في ثقب الباب حينما كان يومًا مستأمنًا على يتيمين أحدهما أنا، وأرملة لم تكن سوى أمي..

لا يمكنني بحال أن أذكر عدد ماسحي الأحذية الذين قابلتهم في حياتي، على الأرصفة وقرب المنشئات وفي المقاهي وفي كل الطرقات،

كلهم قد غابت عني ملامحهم، واحد منهم فقط نبت طيفه في أحداقي، ونزف الفؤاد بتفاصيله. تطلعت في فضول ليده اليسرى التي كان يلوح بها كمنديل وداع بين كل شتيمة ولعنة، فنبتت لي أختي ذات الست سنوات من سبابته المبتورة الممزعة كنصف سيجارة مُطفأة، ترتجف لرؤية الدم المتدفق كنافورة من يده، حصيلة عراك من جلسة قمار خاسرة. حاصرتني في المكان رائحة الدم الممتزجة برائحة الكحول المنبعثة من جوفه النتن، نفس تلك الرائحة التي كانت تبدد عطر العود الذي كانت ترشه أمي على أرجاء البيت في سخاوة كي تطرد – عبثًا – رائحة النتن المنتشرة في كل زواياه. رأيت سنواتي العشر تنتفض حاملة قطعة قماش أبيض أساعد أمي كي تلفها على يده. كلماته مازالت تعبث بباحة سمعي، وشتائمه مازالت تدوي في أحشائي كعابرة للقارات تحصد الآن أشواك الذكرى النابتة كشجيرات عوسج في حلقي.

يعلو نشيج أمي.. تبعثرني دعواتها عليه بأن يطول عمره في الشقاء، وأن يلقى من جحيم ما أراها أصنافًا وألوانًا حتى يتمنى الموت فلا يجده.. يتهدج صوتها.. يتكسر يخمد.. يستحيل دعاؤها فجأة تحت عيني جثة خامدة تمارس الشخير والسباب.. تلوذ بالعراء تستدفئ ببرودته من صقيع الشيبة والفقر والمرض.. لم أكن أعلم أن الدعوات

قد تتشكل يومًا لتصبح شيئًا ماديًّا محسوسًا تراه بعينيك المزروعتين في رأسك، فتلمسها بيديك، وتحدجها بعينيك، وتراها ذات غفلة من وجع، وتناس للذاكرة، جسدًا محنطًا ممدودًا فوق رصيف بارد.. يمارس طقوس العربدة والعراء..

رصيف قد اصطكت بحافته ركبتي، ومن صقيعه ووحشته شراييني ذات يتم أبيع المناديل الورقية أستجدي المارة أن يغدقوا علي بما يكون منه صلب عودي وعود أختي النحيلة المذعورة؛ بعد أن أستخلص له ثمن السجائر والكحول. سرواله المترهل الممزق يسفر عن ركبتين عريضتين طالما مارستا هوايتهما في الرفس. أراه – ذات حصة تفتيش – ممسكًا بفروة شعري يشدني، يبصق في وجهي، يرطم رأسي بحافة الحائط فيمج الدم من أسناني ومن حاجبي، وقد عثر على دُرَيْهم يتيم مختبئ بين ثنايا جيب سروالي الممزق. أتحسس عنقي وجزءًا من خدي فأصطدم بأظافره السوداء الطويلة المتعفنة التي طالما نهشت لحمي ومزقت جيد أمي، وغرست أخاديدها في وجه أختي. تتراءى لي أمي ويدها النحيلة تحاول انتشالي من مخالبه؛ فيصفعها صفعة أخيرة يلقي بها على البلاط البارد الفارغ من الأثاث مذ بدأ رحلته في بيع كل ما تطاله يداه..

أدنو منه.. يفتح نصف عين ويبتسم ابتسامة بلهاء معتوهة.. كفه مازالت

تلوح.. ولسانه لا يفتر عن الشتم.. تهم رجلاي أن ترفسه.. أن تكسر وجهه وأضلاعه.. أرفع رجلي اليمنى.. يتصاعد الدم إلى جمجمتي كمضخة صاخبة.. تتهدج أنفاسي.. سنوات العذاب تتراقص حول جثة أمي الملقاة على الأرض تحت حذائه العفن تلفظ أنفاسها تحت النزيف.. مقدمة حذائي على مقربة من أنفه.. ينبعث لي طيف أبي خلف غمامة من دخان يجر كفنه الأبيض.. يحدق في صمت في عيني.. ثم ما ألبث أن أبعدها عن وجهه لأضعها فوق الصندوق الخشبي.. سأرغمه على أن يمسح حذائي، مقابل دريهم، فأمسح بذلك كرامته.. ابتسامة رخامية تتكسر فوق شفتي.. أبحث عن هذه الكرامة التي ستمسحها لمسة تلميع؛ فأصطدم بكومة شعره الرمادي الثائر كأعشاب السافانا، وببرودة الرصيف تحت جسده، وبرائحة النتن الذي يزكم المارة فيهرولون مبتعدين متبرمين..

ينتشلني من أفكاري العائمة صوت قريب خلف ظهري تمامًا:

"سيدي، سألمع حذاءك أفضل منه.. إنه لا يستطيع حتى حمل الشيتة بين يديه.. لا يحسن سوى السب واللعن والنفخ في كيسه"

استدرت لألمح طفلًا في العاشرة يحمل صندوق الشقاء بيديه النحيلتين، وابتسامة ترسم كل ألواح الحزن على شفتيه.. مددت يدي إلى جيبي.. أخرجت قطعًا نقدية سخية أهديتها له معتذرًا عن قبول خدمته.. أزحت قدمي عن الصندوق.. سحبت منديلًا ورقيًّا وقلمًا جافًّا من جيب

معطفي.. كتبت رقم هاتفي دون أن أدون اسمي.. اقتربت من المسخ الملقى على الأرض؛ ووضعته في كفه ذي الأصابع الأربعة.. فتح مرة أخرى نصف عين ولسانه ينزف بكلام مبهم..

انطلقت أحث الخطى إلى سيارتي، وابتسامة انتقام تزهر فوق شفتي..

# 5 – هزيمة

كقذيفة تقتحم شموخ كل ما تمر به لتحيله حطامًا، هكذا تلقت نبأ طلب ابنتها للزواج..

– «سأختصر عليك تخمين سبب اتصالي بك على غير عادة مني. قالت زميلتها وفاء. مصونتك الآنسة «هدى»، يريدها أخي للزواج. متى نستطيع احتساء فنجان شاي عندك؟ هي مناسبة كي يراها عن قرب..»..

يرحل صوت الأثير فجأة، ليشتعل في صدرها حريق انفعال. بالكاد تنبهت أن المكالمة قد انتهت على اتفاق بينهما للقاء يوم السبت المقبل، وبأنه عليها أن تقفل المكالمة، وأن تضع السماعة، وأن تطلع ابنتها على الخبر..

هكذا يأتي المساء الملغوم بالألغاز، كدمعة معلقة بين رموش الدهشة وجفون الحسرات، متعب وجهه، ذابلة عيونه، مفرغة من المعاني عدا من كلمات زميلتها تتردد صدى في سراديب سمعها الأصم..

ترى متى نبتت وحيدتها؟ ومتى استوت كزنبقة فواحة، ومتى حان وقت استنشاق العبير؟..

متى أعلنت الحياة انشقاقها عليها؛ فجعلتها تتجرع هزيمة عمرها المنسكب من بين يديها كقطرات ماء، فتموت قبل أن تعانق الحياة؟..

عبثًا تحاول أن تستجمع الكلمات كي تجعل الخبر بطعم بشرى وبنكهة الفرح، عبثًا تحاول أن تتخيل «هدى» بقفطان الزفاف ومحياها يوزع البسمات، فلا تنزّ لها سوى صورتها اليتيمة المبتورة التي كانت قد دستها في الدولاب ذات حفل تمزيق للماضي؛ كي تظل شاهدها والأحزان على أنها كانت يومًا هي أيضًا تلك العروس المزفوفة، لكن للوجع.. اضطرت يومًا إلى نسج مناديل الوداع ونسف العهود مع من قرر أن يلون حياتها بلون الجدب وينكهها بطعم الموت، وإلى الاستفراد بنفسها في الصورة، فكانت مرغمة على بتر جزء من ذراعها الملتحم بذراع طليقها، وعلى قص طرف لم يعد البرواز مهتمًا بوجوده. كانت تعلم منذ البدء أنها ستكون ذات خيبة مرغمة على أن تجعل الذكرى بنصف وجه ونصف ذراع ونصف حقيقة ونصف صورة..

تحدق في تلك التي كانت تملأ الحياة بالحياة، بسمة عينيها الحزينة كانت تروي منذ أول يوم أسطورة تراجيدية لم يكن لها من نهاية سوى الانفصال، تتدفق العبرات على وجنتيها ثائرة حائرة، تهزمها أنوثتها المتجاوزة بركض السنين وجديد الأحداث..

«انتهى كل شيء أيتها المسكونة بالأحلام، هيا اعترفي! أتراك مازلت

الآن وقد صرت مقبلة على حياة الأصهار والأحفاد متشوفة لأن ترصي أمنياتك تعطريها بشذى روحك المصرة على البقاء؟»..

ألم يكن لهذا الخبر أن ينتظر قليلًا!؟ فهي بالكاد ترتب حياتها بعد طلاقها، وتحاول استرجاع أنفاسها المستنقذة من رحلة عذاب طال سنوات بعدد سنين عمر ابنتها. ألم يكن لهذه السنوات الراكضة أن تتوقف قليلًا، تمهلها أن تعود فيها الحياة؟

ما أصعب أن تنتهي في الوقت الذي يكون فيه من حولك بالكاد سيبدؤون!

وما أصعب تلك النهايات الحاسمة، مثلها كمثل من تعسرت ولادتها لتتمخض عن جنين ميت، فارق الحياة تمامًا في الوقت الذي كان يتهيأ لمعانقتها..

انسحب النص معتذرًا والمجاز قد انكسر، فغرقت فجأة في صمت صامت، ذاك الذي يحولك إلى مجرد شريط أحمر تمر أحداثك عبره، دون أن تعنيك في شيء، ويحول الزمان والمكان إلى اللا حدث..

عبثا تستجمع بقايا أنفاسها المتشظية من هول الصدمة، فبعض الأخبار المفاجئة في الزمن بدل الضائع من جولات الأحلام؛ قد تكون جميلة وغير متوقعة؛ حد الفاجعة.جوب أركان الغرفة، ترتقها جيئة وتفتقها ذهابًا، لم تكن بالشساعة التي تمكنها من ممارسة طقوس الحيرة والذهول، لكنها استطاعت على كل حال أن تلف حول نفسها كأرجوحة استهوتها الحركة، فظلت تطوف في انتظار أن تمتد إليها يد كي توقفها..

أوقفتها خطواتها المبعثرة أمام المرآة الرابضة في زاوية غرفتها؛ حيث انعكاس شبحها الشاهد على بقايا أنوثتها العالقة في روحها؛ كمشبك قد تدلى منه الغسيل المنشور، يكفيه نفخة ريح كي يتوسد التراب..

امتدت أناملها الرقيقة في ارتباك تتحسس وجهها الشاحب ذا القسمات الطفولية، وحدها شاهدة على هذا الصقيع الذي يفتت زوايا الجدران.. على أرفف الذاكرة الخاوية من الزنابق ومن فناجين القهوة، الفارغة من بعثرة الكلمات، اليائسة من المعاطف التي تدثر الأمنيات.. على القناديل المطفأة، وعلى الأرواح المعتمة وعلى هذا الموت الساكن في ربوع الحياة.. على صافرات الإنذار المعطلة إلا من هزيم رعود الحياة الذي يرتجف له الشريان.. على زجاج النوافذ المرقط بدموعها وهي تتطلع لنجم السماء.. على الشبابيك الموصدة، وعلى الصمت الشاحب .. على بقايا الأوجاع العالقة في عتبات الأبواب وفي ثقب الفؤاد.. وعلى هذا الحلم الجنين الناعس في بطن السحاب، الذي أُجهض في الوقت الذي كان ينتظر فيه ساعة مخاض ليزهر ولتسميه دروب الشتاء الشاحبة الممتقعة ربيعًا.. فتزهر معه الأحلام وتعبق به الأيام..

تيك المسفوحة على مقصلة الحياة، استفاقت فجأة على نهايتها في الوقت الذي كان فيه كل من حولها ممن هن في سنها بالكاد يعانقن الحياة. لم يتبق منها غير حلم ملفوظ منذ دقائق بفاجعة الخبر المستعجل، وعمر انقضى ولمّا تولد، وطيف لا تكاد تبصره نجوم السماء. عيناها؛ أجمل ما

فيها؛ أصبحتا أكبر شاهد على طوفان الأوجاع، تحتاج المرايا إلى أن تصاب بالعمى كي لا تكتشف ذلك الحزن المعلق على الأهداب..

ربتت بلطف على شويبات متمردة قد لونت ناظرها بلون الرماد، انزلقت كفها النحيلة قرب جفنها حيث تلك الهالة السوداء المشبعة بأوجاع عمرها السادر في الخيبات، وبحرائق السماء الذابلة كل ليلة في مآقيها، وبحروب أبت إلا أن ترسم على وجهها خرائط الهزائم، وأن تحفر على وجنتيها أخاديد الأحلام الموءودة، وأن تحصد أضلاعها النحيلة بمناجل الحياة..

عطرها المرتبك، أخجلته أوراق الخريف..

ترى من صادر بسمة الأوراق وامتص الحياة من ينعها؟

من صفف السنابل هيأها للحصاد، تحني الشموخ تحت لمع المناجل؟

من أربك الشمس فصارت تغيب ساعة الإشراق، وتشرق حين يلوذ الليل بالليل يحتمي بحلكته من ضوئها؟

عبثًا تحاول أن تقتنص الفرحة من عينيها كي تلفها باقة بشرى تزفها لوحيدتها، فتزكمها رائحة شواء أحلامها المتلظية بلهب تلك المكالمة السادرة في الحقيقة، تلك المحادثة التي نسفت في لحظة حلمها العصي الشارد البارد كمدينة عربية أرهقها الحرب والموت؛ في أن تستقبل حياة جديدة تتنفس من تفاصيلها الحياة..

عبثًا تتحايل على القصيدة كي تعيد لطفولتها لحنها، وللقلب الحزين

مراتع صباه، تخبرها القافية أن ترجم القصيدة، وأن تغادر في صمت..

يحكون - والعهدة على من روى - أنها مذ تلك المكالمة الفاجعة؛ كانت تزور المساء كل مساء خفية عن عيون النجم، تحمل شجن صوتها الحزين بين كفيها، وومضة مسروقة من لهب الضياء بين عينيها، تتوسد حائط هزيمتها حينًا، وحينًا تتوسدها الأشجان، تمكث غير بعيد عن كروان يصدح بكل شيء عدا باسمها، ويغرد بكل لحن عدا بلحن حلمها المسفوح، ويروي كل شيء عدا قصتها الحزينة السادرة في الوجع..

تنصت قليلًا للصمت وللفراغ..

ثم تحمل الغياب وتغادر..

# 6 – إعفاء

اختطفته طلقة قناص من بين يديها وهي تعبر به الطريق رجوعًا من فرن الخبز، فعلقت شظايا جمجمته النحيلة بفستانها الأخضر وضمخته الدماء..

شاحبة كانت كما قمح البيادر.. كما الخوف.. كما الموت.. كلون الرصاص المنتثر كحصيدة عوسج. مذعورة حد ارتباك خطاها، حد احتباس الدمع في رئتيها النحيلتين.. حد تخليها عن الأرغفة وجثة أخيها الممددة فوق الرصيف البارد.

هرولت تحت وطأة الصياح تربكها الجلبة.. التفت ساقاها الباردتان الحائرتان فجأة وتسمرت وسط الميدان كصنم؛ تلاحق عيناها الجافتان بركةَ الدم التي تغرق جسد "ياسر" النحيل.. منذ دقائق فقط كانت يده الرخوة تعبث بأصابعها.. تنبض في كفها. منذ دقائق فقط كان يركض باسمًا هامسًا لها أنه سيفوز بسباقهما للفرن.. منذ لحظات فقط كانت أسنانه الصغيرة تقضم حاشية الرغيف يقرضها كأرنب..

تعالت زمجرة القذائف المتهورة المتناثرة في كل زوايا الأزقة والشوارع، وتعالت صيحاتهم يستحثونها على الهروب. لكن عينيها كانتا

مزروعتين في أكاليل الأقاحي المتناثرة حول جثة البطل الصغير؛ تلثم جبينه ووجنتيه وتغرقه في لونها القاني.. ترتجف لرؤية تلك النافورة المحفورة في جبينه، تناوب النظر بين جمجمته وبين شظاياها على ثيابها فتنتفض كعصفور مبلول.. تحسست فجأة أطرافها الصاقعة، وضيق الكوة المحتبسة فيها بقايا روحها الكسيحة. همت أن تستسلم في يأس وخوف لضمة قبر لا تذكر كيف ولا من دسها فيه، فصفعها الزفير المكدود المكتوم لعشرات القلوب الواجفة المتكدسة معها في ذات المرزاب تنتظر فك لغز الليل أو ترنيمة جديدة لطائر الحسون.. لم تكن الطفلة الوحيدة بينهم، لكن وحدها كانت تحمل عبق أخيها معها في تفاصيل فستانها وفي الرموش وفي ثنايا كفها الصغيرة.. وتحمل في أحداقها طيف أمها المنتظرة خبزًا وزهرتين نديتين هما كل ما تبقى لها من مدينة الرماد..

الشمس مازالت تلفح وجه المدينة المحتضرة؛ فتتضوع ذاكرتها مسكًا، وينبت في جفنيها الناعسين ورد وشوك ومزعة شلو قد تنفس عشقًا وغادر ذات وجع كما يغادر الوُلَّه ظل الزيزفونة ساعة مغيب..

ذاكرة العشق تعلق بالوجع.. أولئك الذين لم يتألموا، لم يكتب لهم شرف الوفاء، والعشق الذي لا ينجب وجعًا، لا يستحق أصحابه..

يكتم أنفاسَ الشوارع دخانُ الحرائق المتنامي مع كل طلقة كوجه مارد، فتتعالى الصرخات وتبح الاستغاثات وينتصر هزيم المدافع، يُبكم الأنات

المنبعثة من تحت الركام ومن شقوق الحطام ومن غياهب الموت المتربص بخمائل الياسمين..

كانت تعرف الموت ويعرفها. رائحته مازالت عالقة بشرائط شعرها. لكن لم تكن تعلم أنه سيرسم يومًا خطوطه على فستانها كلوحة بوهيمية ثائرة تعشق الأحمر القاني تصنع منه تفاصيل الذكرى..

حينما هدأ عويل الرصاص، وسكن الغول الجائع لبتلات الأرواح؛ المترنم بموشحات الرعب، انتشر المنكوبون من مخابئهم كالمبعوثين من القبور، تشق تكبيراتهم عنان الفضاء فتمطر زخات يقين.. يسعفون الجرحى ويوارون الجثث الممسَّكة ويكملون رحلتهم في احتضان الفجائع.. ضاعت ملامحها بين كل أولئك العائدين من رحلة الموت، وامتزجت خطاها بالخطى المتحيرة المتلفتة الباحثة عن بقايا النهار في شظايا رصاصة.. بعبق الراحلين.. بزغردة الثكالى.. بلثام الإباء.. بعناقات الوداع.. برماد المنازل.. بشذى الأمنيات.. بأشواق تصر رغم كل شيء على البقاء.. بفستان الغادة المنتظرة مهرَها كفنَ الراحلين.. بمنتظري من لا يعودون.. بالوردة الحمراء النابتة فوق نعش معانقي الحياة..

سحبت خطاها وبقايا ملامحها عائدة مع العائدين..

طويلة كانت رحلة إيابها، سحيقة كرحلة الموت، مظلمة كسرداب، مضطرمة كبركان..

موجعة كتفاصيل رحيل أخيها..

ترتعش حينًا وتتماسك حينًا، وتغرق تفاصيل سنواتها العشر بحثًا عن الخلاص من سرها المزروع في أحشائها وفي أحداقها وفي ثوبها.. تكتب للوجع ألف قصيدة، وتصنع لسرها ألف صندوق تواري فيه فستانها وجثة أخيها تحجبهما عن عيني أمها المنتظرة..

تجمدت خطاها فجأة، وانحبست معها الأنفاس في شرايينها والبريق في عينيها المكدودتين..

أعفاها انهيار بيتهم بقذيفة؛ من حِمل إفجاع أمها بالخبر..

# 7 – جحود

أمام واجهة محل المجوهرات، وقفت مصلوبة تتحسس في صمت وحسرة نخسات بذخ الفتنة المعروضة أمامها. تسافر عيناها بين كل القطع لتحط في كل مرة عند ذلك الطقم المتربع في شموخ وأناقة خلف زجاج المتجر. تتشقق شفتاها بابتسامة مرمرية، وتند الدموع المتكلسة من عينيها كرؤوس الإبر، ثم ما تلبث أن تنفجر ساخنةً ملتاعةً تكوي المآقي وتشق طريقها في أخاديد الصبر المحفورة على الخدود. يبهت طيفها، يمتزج بأشعة شمس الزوال، ثم تنكسر ذبالتها على خطى السنين الراكضة بحثًا عن أويقات حلم منسوج بعطر الزنابق وببريق كهذا البريق الفتان الماثل أمامها يذكرها بكل عنفوانه وبكل لمعانه بأنه وبأنها سحر الأنوثة ورقة الأنوثة وميس الأنوثة..

تبتسم في حنق.. يتراءى لها كُرزها الوردي الصغير تشرئب منه حلي العيد وشرائط وقابصات شعرها الملونة، وبعض من ألعاب الأطفال على شكل مستحضرات التجميل. تسمع وشوشات زميلاتها في الدراسة وهن يثنين على لباسها وأناقتها وذوقها. تتذكر أيام السهر والتعب وهي تمني نفسها بالشهادة وبالوظيفة حتى يتسنى لها تدليل نفسها بكل تلك الثياب

الجميلة، وبأطقم الأساور والسلاسل والخواتم المعروضة في الرواقات. يسح الدمع.. تخرج منديلًا من حقيبة يدها قبل أن يتنبه لها المارة.. تمسح وجنتيها الملتهبتين ثم تحث الخطى إلى عملها كي لا تتأخر..

كل شوارع المدينة تعرفها، وبعض أتربة حدائقها كانت قد بللتها يومًا دموعها، وبعض أزقتها تشهد على حقائب أوجاعها، ودفاترها والفوانيس المطفأة، والورد الملقى على إسفلت الرصيف، وخطى عابري الحياة المثقلة بالأوجاع، والهجيرة، ومراتع الحلم الحزين.. كلهم يعرفونها، هي الضحية وهم الشاهد، والجاني قد ماتت الحقيقة لسنوات على شفتيه وغاض الحق في رمال خسته وتسلطه..

تعتمل الأفكار في رأسها وتتناسل. نفس تلك الأفكار التي كلما قطعت لها رأسًا نبتت لها رءوس جديدة كما التنين، وكأنما محاولاتها المتكررة لبترها؛ سقيا لجعلها تنبت وتنمو وتترعرع وتنجب أفكارًا وليدة تنتهي كما كل مرة بإدراجها في قائمة المستحيلات..

-" ماذا لو أترك العمل مادامت أحلامي كلها جائعة للابتسام؟

وهل الحل أن نشرد الأماني ونمزق الآمال وأن ننثر وريقاتها فقط لأننا لم نستطع استنشاق عطرها؟

ماذا لو انتفضتُ مرة أخرى وأعلنتُ عليه الانقلاب وحالة طوارئ ممتدة إلى أن أسترد حقي، دون أن أذعن لجبروته ولتصلد موقفه ولاشتراطاته التي

تجعلني كل مرة أخسر معركتي معه؟"

انكسر الخريف في دمعة نزت من عينيها، وغطت الشمس التي كانت منذ قليل تصهر جمجمتها؛ في صمت عميق متدثرة بمرط السماء. كل النبوءات محددة عندها بوافدات مستعجلة تبدأ بجحوظ عينيه وانتفاخ أوداجه لتنتهي نيزكًا متشظيًا خارج المدار. وحده صوته النابت كشوك من حصيدة الغيلان كفيل بجعلها تنزوي بين ضلوعها رافعة رايتها البيضاء، محجمة عن الثورة مادامت لا تملك الآن حرية الاختيار.. ما دامت تخونها قوة القرار..

- ألست زوجتك ومسئولة منك؟ فإن كنت لا تريد أن تنفق علي أنت، فدعني إذن أنفق على نفسي من مالي؟ ألست أعرق وأتعب وأكد لأجل الحصول عليه؟ إنه مالي..

- "مالك؟ مالك؟!! غبر الله شقفك أنت ومالك. ما بك لا تفهمين؟ ما بك لا تريدين أن تفهمي؟ أنت لي، ومالك لي، لي أنا. اسمعي! للمرة الألف أعيدها ولن أعيدها بعدها أبدًا. هذا المتاح عندي، فلا تجعليني أتصرف بهوج!!

تجر خطاها الأسيفة الكسيرة، تختلط بأرجل المارة وتغرق في صمت مشبع بالأنين. الشمس المتنكرة تلفح وجهها وتلفح معها أفكارها فتقلبها في حيرة بين الصراخ والصمت، بين التأجج والاستكانة.. بين الثورة

والإذعان. كلماته تحفر في فؤادها الخنادق. تعلم أن ذاك كل حظها من فتح هذا الملف الأمني السري الشائك أمامه. كلما توقعت أنها شارفت على الانتصار وسحبت بطاقتها البنكية منه، تكتشف أنه قد اخترع أسلوبًا جديدًا للاستحواذ عليها، فتجد نفسها منصهرة في دوامة سيزيفية تمتص لونها وبريق عينيها وتقتل فيها مرح الأنوثة وبهجة الحياة..

***

هذا المساء- كما كل مساءاتها- حزين عليل، تمتزج زفراته الكئيبة الموغلة في الرتابة، بشكواه التي ألفتها مسامعها من مدة. شكوى تولد كغول نهم أهوج يلتهم في طريقه كل ما يصادفه أمامه، بدءًا بمصاريف السكن والماء والكهرباء والهاتف وطلبات الأولاد فلا يشبع إلا وقد فرغت اليد من كل دريهم كفيل بأن يمكن فارسها من استقبال شهر رمضان الكريم بما يليق أن يستقبله به..

كانت تعلم يقينًا أنه يعلم يقينًا أن ما بيدها من حيلة، وأن ذاك الذي كان بإمكانها أن تساعده به وقت الشدة لم يكن يسعفها به وقت الرخاء. وأن كل مالها عنده بأمارة بطاقتها البنكية المشفرة بأرقام لا يعلمها إلا هو. لكن شكواه المتكررة صدى في مسامعها صادفت شيئًا ما بداخلها. شيء يشبه الإيثار.. يشبه الشهامة والمروءة والإحسان.. شيء يسمى في عرف الزوجية بذلًا ووفاء وتفانيًا.. شيء يكتبه التاريخ عادة بمداد من فخر وامتنان، يرصه

حكاية جديدة تنضاف إلى الرصيد في العطاء وفي التضحيات..

استيقظ الصباح هذا الصباح على همسة حزينة ومناديل تلوح بالوداع، ودمعة متحجرة في المقلتين. والدمع حينما يتكلس في المنافذ، يأذن للقلب بأن يتمزع..

تحمل بين يديها سوارها اليتيم المهجر المبعد عن رفاقه من ذلك المتجر حائط مبكاها، حيث كانت تصب كل يوم للشوق إليه أساطيل دمع سرعان ما يجف بين كفوف حسرتها ولوعتها وذاك الضعف المهيض الساكن بين رجيفها ووجيفها.

تقلبه.. تقبله.. تضمه إلى صدرها كثكلى تودع وردة أحشائها تزفها للتراب.. تفاصيل امتلاكه ذات غفلة من زوجها؛ لا تقل وجعًا عن تفاصيل مكوثها أمام واجهة متجر المجوهرات، مصلوبة ماثلة بين دمعة ودمعة تمني نفسها بحلم مخملي أنثوي لا يعدو أن يكون امتلاك سوار. تمامًا كما كل النساء اللاتي اخترن العمل كي يتسنى لهن تدليل أنفسهن ومنحها شيئًا من اهتمام، واقتناء بدل الدملج أطقم ومجوهرات..

تلك الأشياء التي هي لكِ.. تلك التي كان من المفترض أن تكون حقًّا لكِ، رحيقًا ترشفينه مبتهجة، فإذا بك تنتزعينها انتزاع السم من بين أنياب أفعى، لا تعلمين حتى كيف تبتهجين بالحصول عليها، ولا كيف تحتفين بها بعد أن تكون ملكًا لك بين يديك. يفقدك اضطرار المراوغة والتخفي لذة

الانتصار أن لم تصر، إلا بعد معركة هوجاء، جزءًا من تفاصيلك الأنثوية الغائب جمالها وسكونها ودفء أمانيها في رمال الاستلاب والاستيلاء والسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة بميثاق اسمه زوجية..

-"سيعوضني عنها.. يومًا ما.. ربما.."

أغمضت عينيها على تلك الدمعة العنيدة التي خانتها اليوم وهي أحوج ما تكون إليها. ومضت شفتاها بابتسامة حزينة يائسة، تلك التي تُرسم عادة على وجوه من ألفوا خيبة الأحلام، لكنهم رغم كل شيء تعلقوا بالمستحيل؛ عل يومًا ينجب بصيص أمنية موءودة على الشفاه..

وما الضير في أن نعيش الأحلام وإن كنا نعلم أنها لن تتحقق؟

ما الضير أن نمني أنفسنا بالقادم الجميل معهم وإن كنا نعلم أنه لن يأتي؟ فالحلم لحظة مستقطعة من الألم، نكبح به من حين لحين براثن الموت البطيء..

ما الضير أن نحلم.. ونحن نعلم أننا لسنا نفعل أكثر من أن نحلم..

كانت قد هيأت له من الأيمان ما يضطره معها إلى قبول عرضها، وأعدت له من وسائل الضغط ما يجعله لا يعترض، لكنه أعفاها من كل ذاك حينما تقبل الفكرة بسرعة؛ وعيناه تبرقان بومضة انتصار اعتادت على لمعتها كلما اكتسب فصلًا جديدًا من دساتير حقوقها، فانتقلت الملكية إليه دون اضطرار إلى تسجيل ولا إلى تحفيظ، بل دون حاجة حتى إلى توقيع منها..

كانت  في الواقع من أعفته من اقتراح ذلك الحل وأزاحت عنه هم الطلب، وهو الذي اعتاد أن يسلب لا أن يطلب..

امتدت يد الصائغ تسلمه ثمنها، وامتدت معها عيناها ترقب في لوعة وحسرة مراسيم تأبين سوارها الحبيب، وأرجوحة الحزن تقذفها للحسرة.. أغمضت عينيها لحظة ممنية نفسها بتلك العبارات التي ستكفكف لهيب الفقد في أحشائها؛ يعدها أن يبدلها عن دملجها اليتيم مناجم ذهب ومتاجر ألماس.. تابعت في لهفة تحرك شفتيه، وتمددت باحة سمعها تستعد لاستقبال الوافدات السعيدة المنتَظرة.. تلك التي لا يخسر مرسلها أكثر من لف بضعة حروف منمقة؛ بذَرة إحساس ولو مفتعل يهديها؛ باقةَ شكر وامتنان..

تمطت شفتاه وتقوست وتعرجت وهي في حالة ذهول وتوتر كتلك التي تصحب عادة مراسيم الانتظار.. لم يمنح نفسه أخذ بعض الأنفاس بين الكلمة والأخرى قبل أن ينثر حولها أريج باقاته المعهودة؛ فيلثمها عطرها، ويخنس بها ومضها إلى ما وراء المجرة، فتنتشي بها حد الشَّدَهِ، حد الثمالة.. حد أن تغيض بين الحروف تبحث لها عن قواميس تمنع منها التحير والذهول:

-"لعلك تخالين أنني سأعوضك عنه سوارًا آخر.. قد وهمت.. أنا لم أطلب منك ابتداءً أن تفرطي فيه!!"

# 8 – سفّاح

أمطرت اليوم كما كل يوم من أيام دجنبر كحيلة العيون..

استلقيت على أريكتي، كتابي بين يدي وفنجان قهوتي ينتظر مني رشفة، بارد؛ نصف فارغ، نصف مملوء، تمامًا كما حياتي الباردة، النصف فارغة من الأشياء الجميلة التي تأبى أن تقترب من مساحتي، النصف مملوءة بذاكرتي حاملة شجوني. أعبر غبش النافذة محاولًا أن أزيح بعيني عتمة هذا المساء. كل شيء صامت كئيب كآبة الأشجار العارية والقمر الذابل والنجوم الخاسفة، عدا عويل هذي الريح التي تلتهم سكون الخواء، وأزيز أفكاري الغبشاء المعتمة المتصارعة في جمجمتي الكسيحة. عقارب الساعة بالكاد تتقدم.. تعاندني.. تأبى أن تطوي الدقائق تسلمها للساعات.. ويأبى معها هذا الليل أن يسلم عرشه لرحابة الصباح..

كل أبواب المنازل موصدة، والشبابيك تغرق في صمت شاحب لشحوب السماء الخالية هذا المساء من بصيص نجم ومن وهج القمر، ولامتقاع أعماق ساكنيها من صقيع العواطف ومن وحشة الوحدة وسط الجموع. ولولا تلك المصابيح المشعلة لخلتها قبورًا، بل تلفحك فيها–

كلما اقتربت منها- وحشة قبور تنشر كل يوم أصحابها يدورون كما الرحى مع سويعات يومهم، لتقذفهم ذبالة المساء إلى حفرهم كي يمارسوا طقوس الموت متدثرين بأتربة الجفاء والجفاف، لا يجمعهم بالأسرة ودفء الأسرة سوى الأسماء العائلية المسجلة رسميًّا في الدوائر الحكومية..

صوت الريح النائي الحزين يتنامى إلى مسامعي، يتردد دون كدٍّ كنحيبِ مبعوثٍ من قبر يحاول -عبثًا- أن يقنع الناس بأنه قد دُفن خطأً وهو يعلم ألا أحد سيصدقه، وحتى إن صدقوه فرهبة الموت ستصاحبه أينما حل، وسيهربون من رائحة التربة العالقة بأنفاسه، وسيعيش على هامش الحياة، وسيتمنى لو بقي مدفونًا؛ على الأقل حينها سيستحق مسمى الموت، ولن يكون مضطرًّا لإقناعهم بأنه ميت، فكل ما حوله دلالة حقيقية على أنه هناك ويشهد بأنه قابع حيث يقبع كل من انتهت فرصتهم في حق الحياة..

حتى الريح كانت هذا اليوم في حاجة لإثبات أنها هنا.. تمامًا كما كل أولئك الذين ما تفتأ الحياة ترغمهم على أن يواصلوا الشهيق والزفير فقط كي يثبتوا لأنفسهم أنهم مازالوا هنا.. متشبثين بأهدابها كما علقة..

كان بإمكاني- هذا اليوم بالضبط - أن أحول مجريات الأحداث، وأن أصنع من الأشياء الصغيرة حولي أشياء باذخة الروعة والبهاء، وأن أكمل حياتي أو على الأقل ليلتي منتشيًا أنني أفعل ما أريده أنا لا ما تفرضه علي هذه الوحدة اللعينة التي أهديتها شطر حياتي؛ في حين أهديت الشطر الآخر

للفراغ. لكنني كنت أعلم أنها مجازفة.. مجازفة غير محسوبة أن تقرر في لحظة أن تستمر الحياة كما تريد.. كما تريد أنت وكما تريد أحلامك.. وكما يريد مخزون الذاكرة المشبع بمزيج أحلام وأوهام وأوجاع.. أن ترتب أشياءك فيكون كل ما حولك جميلًا.. جميلًا جدًّا.. جميلًا حد الهلع من أن يرتد إليك طرفك لحظة انتشاء على فقده.. على فراغ أصابعك منه.. وأن تكون– مع بذخه وسموه – كل النهايات حوله مفتوحة..

أخبروني يومًا أن إدمان النظر للسماء وللنجوم وللقمر يصيب بالعمى، أو في أحسن تقدير يصيب صاحبه برغبة صاخبة محمومة في أن يعتلي عروش السحاب، فيسرق الليل لأجل ذلك من رموشه الدموع. فكيف لمن صادقوا الدمع وأوفى لهم أن يفرطوا في دمعة لحظة اختيار لارتقاء العروش؟

أخبروني أيضًا أنهم قد صنعوا لكل الأحزان قواميس ترادف الموت بالفقد والرحيل والبعد. لم يعلموا أن الموت أهون كل تلك النهايات. أليس الموت انقطاع النفس مرة واحدة؟ والفقد والرحيل موت بطيء تخرج الروح المتقطعة فيه كالحسك الموغل في العهن المبلول؟ لم يعلموا أنك إذا ما متَّ ولد فيك شيء جديد، أما إذا ما فَقدت فإن كل أجزائك وكل أبعاضك وكل أنفاسك تنتفض لتعلن عليك العصيان والتمرد.. لتضرم عليك كل جمار الأوجاع التي أهونها الوجع، وتشن عليك حملتها

المسعورة في أن تنفضك منك، وأن تُخْلِيك منك، وأن تنزع منك بتلات روحك انتزاعًا..

لا أريد أن أمتلك شيئًا جميلًا.. كي لا أضطر لأن أفقده ذات هزيمة..

***

أقبرتُ الدقائق الأولى لجلستي بين سطور رواية نسي كاتبها أن الفرح وَهْم كبير، وأن السعادة التي أنطق بها شخصيات قصته كانت عارية مكشوفة.. على الأقل لخبير مثلي في الأحزان.. حاولت أن ألتهم بعضًا من مراسيم الفرح بين حروفها، لكنني أصبت بعسر هضم حتى عافت نفسي فنجان قهوتي الرابض أمامي فوق المنضدة..

ها أنا ذا أطوي الكتاب دون أن أضع بين وريقاته بطاقة الشحن التي اعتدت أن أحدد بها أين وصلت في القراءة؛ لأنني لن أكمله. حاولت عبثًا أن ألتمس للكاتب بضعة أعذار، ثم توصلت بعيد صفحات بعدد أصابع اليدين ألا عذر له. أعلم يقينًا أنني لن أكمل هذا المهرجان، فما صدقت يومًا أن الفرح– ذاك المأمول المستحيل– تخضل به الحياة؛ فضلًا عن وريقات رواية..

الدقيقة الثلاثون إذن ماتت بين دفتي كتاب، أطلقت عليها رصاص انهماكي الذي لم يطل. كنت أتمنى أن تكون الرواية حزينة ممتعة فيطول، كي تجحظ عينا الزمان بشنقة انشغال. لكنني على كل حال شرّحتها كما

أفعل بجثت الموتى كل يوم في المشرحة البلدية حيث أعمل طبيبًا شرعيًّا، ثم دفنتها بيدي. وثلاثون دقيقة أخرى بعدها احتفلت بمراسيم تأبينها قرب الشباك أرقب خطى المارة المنهكة من عبث الحياة. يسفر الزجاج المعتم بين لحظة وأختها عن وجوه وأطياف مطأطئة تحث المشي تحت زخات المطر. لست الآن وحدي، تؤنسني هذه الوجوه الكالحة والأرواح التائهة. أحاول أن أحملها معي إلى عالمي الذي ما أفتأ أنسج سماواته بخيوط الأحلام، لكنها كانت مسرعة، حملتها آلة الحياة الراكضة فلم تستطع أن تبصر تلويحي لها..

أقبرت دقائقي العتيدة العنيدة التي ما تحركت عقاربها إلا بعد أن كلح ميناء الساعة الحائطية الجاثمة في صدر البهو قبالة أريكتي وتشققت خدوده. لملمت سرادقات العزاء، وابتسمت. أصبحت منذ مدة طويلة قاتلًا مستأجرًا يسفك أرواح الساعات والدقائق والثواني، يسلم جثتها للإصباح. عدلت جواربي وطاقيتي ثم اعتدلت قرب المدفئة أدفئ أصابع يدي. رائحة احتراق الهواء تزكمني، لكنني أحتاج إلى هذا الدفء. وسرعان ما اعتاد أنفي على تلك الرائحة فما عدت أتبرم منها..

تكومت على الأريكة، مشاركًا في صمت في حفلة شواء الأوكسجين، أتابع قطرات المطر التي تنزلق ببطء فوق زجاج النافذة كدمعة ثكلى.. كدمعة أنثى.. كدمعة الواقفين على أعتاب الرحيل..

أسمع طقطقتها.. أقترب منها.. أراها ولا تراني.. تحث الخطى لتلحق بصويحباتها.. تنساب في خط متعرج لترتطم بحافة المشجب.. تتكوم.. تتمدد وتنصهر في تلك البركة التي وشتها دمعات المزن السارجة السابحة في النقاء.. تتسرب رويدًا رويدًا في شقوق الخشب ثم تغيض..

لم تكن تعلم أن من أسرعوا قد رحلوا، وأن من يعلقون في النوافذ لا يجيدون اقتحام المعابر..

لكم تمنت أن تغيض.. خُلقت كي تغيض.. تمنت أن تكون سقيا أرض هامدة فتجعلها تهتز وتربو فتنبت من كل زوج بهيج.. ترويها وتروي معها قلوب من كانوا ينتظرون قدومها بشغف وأحسنوا بها الاحتفاء..

لكم تمنت أن تمتزج بعضيات الأرض فتفوح التربة بشذى الأعطيات.. تغفو على صدرها.. تفترش أحداقها.. ثم تنتشي وهي ترى الشطء قد خرج، وابتهج مَن حوله لمرآه..

لكم تمنت أن تغيض، ولم يدر بخلدها للحظة أن رحلتها ستنتهي قطرة غائضة.. لكن في شق مشجب..

دقت الساعة الحائطية دقاتها الثلاث ففتحت عيني، علمت إثرها أنني غفوت وأنا أواسي قطرات المطر المهزومة مثلي، العالقة مثلي بين المعابر. ابتسمت في تحدٍّ، فقد أزهقت قرابة ساعة في غفوة. لا أعلم لم كل هذا الموت المقيم حولي؟ لم أضطر أن أنتقم من الساعات التي حكمت علي

ذات قسوة بأن أبقى ماثلًا بين انشغال وفراغ، بين غفوة واستفاقة، بين ميلاد وموتة.. بين براثن الحياة؟ المساء أمضيه في سفحه، وكأن الصبح سيأتيني بشيء غير السفك..

لعبتي خلال النهار تشريح الجثث وكتابة التقارير والحوم بين ثلاجات الموت. هذا ما تفرضه علي مهنتي كطبيب شرعي، وأنا إذا ما عدت لبيتي عشية، أكملت اللعبة مع الزمن البئيس، أشرّحه وأنثر لحمه وعظامه أوزعه على الفراغ.. ثم أبتسم..

لملمت ملاءتي وجررت رجلي أعبر إلى غرفتي عساني أقبر ما تبقى من سويعات في نومة عميقة قبل موعد العمل. شزرت الساعة الحائطية في طريقي. نظرتها المتحدية تخترقني، فأقابل تحديها بالاستهزاء. لن تهزمني مادمت أعلم جيدًا كيف أجعل بناتها تنتحر في الانهماك في الفراغ. ترنحت إلى أن ارتطمت فوق سريري..

نمت نومة عميقة.. عميقة جدًّا، فلم أسمع رنين الهاتف الذي يوقظني كل صباح، ولا بوق السيارة المدرسية لنقل أولاد الجيران، وحتى طرقات "أمي أمينة" المنظفة التي اعتادت أن تستلم مني الشقة كل يوم عند خروجي للعمل لم أسمعها، ولا سمعت شجار جارتي وزوجها كما كل يوم على مائدة الإفطار، فيجعلني صوتهما المتعالي أجد لنفسي ألف عذر أنني لم أجازف بزواج يبتدئ اليوم فيه بنقاش حاد يصم آذان الجيران. لم أسمع هذا

الصباح شيئًا من كل ذاك، لكن ذلك الصوت الذي لا يمكن أن تخطئه أذني كان يعبر مسامعي مرورًا بصدري ورئتي..

عبثًا أحاول أن أتحرك، عبثًا أحاول أن أتحسس أضلعي، أن أمرر كفي على بطني النازف، لكن يدي المتثاقلتين تمنعانني. رائحة قوية تزكم أنفي، وومضات خاطفة، وصور مبهمة، ووجوه تعرفت عليها من وقع خطى أصحابها تحت المطر، وقطرات تبللني، وظلام يلفني ويلف هذا الصبح، ورفيف الورق، وضحكات شخصيات الرواية المتنامية التي لم أكمل قراءتها..

ورائحة شواء الهواء..

أحاول أن أفهم لم تصر سلسلة أحداث الليلة المنصرمة أن تتراقص الآن أمام عيني المغمضتين.. أحاول أن أفكك لغزها.. أحاول أن أتحسسني، لكن جسدي متصلب وقسمات وجهي متكلسة واجمة، أحاول عبثًا تحريك شفتي لكنهما ملتصقتان. أومئ رغم ذلك بعيني، أو هكذا أردت أن يخيل إلي كي لا أفوت فرصة بسمة.. بسمة انتصاري المعهودة وأنا أمارس لعبتي المفضلة في شنق الوقت بمشنقة الانهماك في الفراغ. أنا الآن منهمك في اللاشيء، وأعلم يقينًا أن الزمن خارج مداري لم يتوقف، وأن الانهماك في حد ذاته هزم للوقت..

شيء حاد بارد يعبرني.. يجز أضلاعي ويمثّل بأصفاقي. كأني أعرف

هذا الصوت، وهذا الدفق لا يخطئه سمعي، فسيبه طالما اخترق أذني، وذفره يقتحم تلافيف دماغي النائم هذا الصباح. يدان خشنتان تقلبانني، هكذا بكل قسوة تملآن أحشائي قطنًا وضمادات، في حين تمتد يد أخرى لكتابة شيء في سجل طالما لونت بياضه بقلمي الأزرق ونمقت حواشيه بتوقيعي، ثم لتزج بي في مستودع صاقع. حديث الشخصين الماثلين أمامي بوزرتيهما البيضاوتين يقهر الصمت ويبدد صوت المشرط..

رائحة الدم والثلج والسكون تحوم في المكان..

ورائحة غاز المدفئة تنبعث من رئتي..

# 9 – قرار

مطر قد استفرغ قطره يسقي أرضًا صلدة مجدبة، يهطل بكل ما أوتي من ماء، يغيب فصلًا ثم فصلًا ثم فصلًا ثم يعود، يتفقد الطلع ويتفحص مفاصل الصخر، عل شطئا قد أطل، فلا يجد غير ذات الشوك المتكوم خلف الكثبان، وأغصان العوسج المتناثرة قرب الصخر. يستجمع كل أنفاسه ويعيد الكرة، ينفث صبره وترقبه ماءً..

وينتظر..

مر على مطرنا السنين ذوات العدد، وفي كل موسم يرجع يائسًا يجر غيوم خيبته. يقرر مرارًا أن يقلع عن الترقب، لكن فطرة الهطول تؤزه أزًّا على العود وعلى ممارسة طقوس الانتظار..

ذات شتاء، والمزن فاغرًا فاه، والريح العاوية تقتلع الرموش من العيون، والمطر الذي كان مصرًّا؛ في لحظة تعطلت رغبته في الانتظار..

قرر فجأة الرحيل..

سألته السنديانة العجوز الحكيمة:

– ما بالك يا أيها المطر قد استفرغت كل جهدك وطرًا، وأنفدت ذخيرة

قطرك عمرًا، ثم ها أنت قد اعتزمت الرحيل.. تراك بعد هذا تمل الانتظار؟

فرد المطر وقد ابتلع قطره، وكفكف حلمه، وبريق عينيه قد غاب بين رديم الأشواق:

- قد طال مكوثي أرعى حقي في أن أنتظر، وتكرر عودي أجس نبض الصخر الكالح عسى قطرة مني تائهة تخصب عقمه.. وخشيت أن ألوم نفسي ذات تقليب في دواوين أوجاعي على أنني ما انتظرت..

تمتم الغرنوق الواقف قرب السنديانة يسترق سر المطر العنيد:

- رحلة الهجرة تبدأ عندنا حينما تسقط أول ورقة خريف. تأخرت كثيرًا أيها المطر..

أطرق المطر يستجمع فكره الشريد، ويطوف حول حروف الغرنوق السادرة في الحقيقة والوجع..

أشرق محياه ببسمة:

- ليس للرحيل موعد أيها الغرنوق.. يباغتنا حيث كنا ننوي الإقامة والاستقرار..

موعده حين فجأة القرار..

# 10 – غدر الأحلام

لم تكن المسافة بينهما تحتسب بلغة الأرقام؛ إنما بلغة الفقد..

«هو» مكبل ببشريته، منهزم أمام الاختيارات الخاطئة، مثقل بالأحمال وبالأوجاع، مثخن بالفقد، ممتقع كأوراق سِفر قديم، تائه كقطاة عن سربها، عار من الفرح كسماء تودع شمسها ساعة أصيل..

و«هي» مشبعة بالأحزان، ثملة بالخيبة، مغرقة في الكبرياء، مسكونة بوخزة تفسد عليها فسائل الفرح فتنقض جدائل الصباح، وتنفث ثلاثًا عن يسارها كل الأحلام مجهولة الهوية التي تسابق الشوق للاستيطان، مهمَلة كزهرة برية ذرت وريقاتها الرياح، شاحبة كحزمة سنابل ساعة حصاد، كعشب محلته شمس تشرين الحزينة، منهمكة في ترتيب كل الأشياء حولها، حتى إذا ما خلت إلى نفسها غرقت في الفوضى..

كلاهما تلاعبه الحياة، تراقصه، تعانده، تعطيه كل شيء، وتسلبه أهم شيء.. كلاهما مسكون حد الهوس بالفقد وباللحظات المارقة..

كلاهما يوزع البسمات ثم ينزوي ليصنع الدمع من عقود الياسمين، يكفكف الأمنيات ويمسح عن وجنتيه الأحلام المنفية، ويتقن العزف على

أوتار الأحزان.. كلاهما غض حد الهرم، فارغ حد الاكتظاظ، مستسلم حد التمرد، مشوه حد الجمال..

كلاهما يقاوم الرغبة بالإياس، والتوق يغالبه بالصبر وبالصمت..

جمعتهما الأيام على حين غفلة منهما في مفترق طرق الحياة، فكان لقاؤهما في الدقائق الأخيرة من الزمن المحتسب عوض الضائع..

هو يجدّف كي ينقذ آخر ما تبقى منه كي لا يغيض في الغرق..

وهي تضفر جدائل الخيبة، وتعد سويعات الفقد المتبقية من عمرها..

تسلل عبقها لروحه كما تتسلل شمس آذار من شقوق النوافذ محملة بعطر زهر البرتقال..

وتخللها نسيمه، كما يتخلل الطل أتربة الحدائق المتشوفة للقطر..

فكان للقاء المطر وشعاع الشمس النافذ أن أزهرت في لحظة أحلامهما..

والطفل النائم في أعماقهما في لحظة استفاق، ولون الأقاحي في وجنتيهما، وضوء القمر في عينيهما، وسحر الليالي، وعطر الدهشة، ولحن القوافي ولون الحياة؛ عادا في رمشة عين ونبضة قلب بعد طول موت للحياة..

ثم عادت الأيام لحرفتها القديمة تلاعبهما، تمارس عليهما غدرها وساديتها..

مدت يدها إليه مبتسمة ذات اعتناق للحياة، فاختطفها السراب والتهمها

العراء.. وهرع يستنقذها ذات تحل بالأمل، فوقع أسير المستحيل..

انطفأ وميض الصباح هذا الصباح، وأقلع الكروان عن الشجن..

وفارس الدهشة غاض في رمال المستحيل..

وفارسة الأحلام المخملية قررت في لحظة أن تكتفي بما عفت لها به دروب الحياة العقيمة..

ودعها تائهًا شاردًا مرتبًا حد الضياع..

وودعته يائسة بائسة تواقة حد الزهد في الحياة..

حد كره الأحلام..

وعطر الأحلام..

وغدر الأحلام..

# 11 – ثم ابتسمت

اليوم، فتحت عيني وأنا أبتسم بعد نومة طويلة لم أحظ بها من مدة، من مدة بعيدة سحيقة..

فتحت عيني في بطء شديد كعيني وليد يعميهما الضوء، فيظل يقاوم بنصف عين إلى أن تستأنس جفونه بهذا الهطول المفاجئ لزخات النور. نظرت إلى النافذة أمامي وانتشيت، ابتسمت لي الشمس فرددت عليها بابتسامة دوشينية تدل بحق على أنني كنت سعيدًا، سعيدًا جدًّا هذا الصباح حد نبض لونها في صدري. لا أذكر منذ متى لم أبتسم، لكنني حقًّا ومن غير مبالغة اكتشفت أن عضلات وجهي مازالت تستطيع التقلص والتمدد لتسفر عن بسمة، وذاك زاد من سعادتي..

تمددت كشرنقة تنكث غزلها لتنسج جناحين تعبر بهما الفضاء الرحب تستكشف ما حولها، ورأيت شمس أبريل المحملة بالأمنيات، رأيتها ولم تكن متدثرة بغيم، قررت إثرها أن ألبس معطفي وقبعتي السوداء ونظارتي الشمسية وأن أطلق ساقي للنسيم، ألثم عبق الربيع تمامًا كتلك الفراشة الخارجة توًّا من رحلة التشرنق..

كنت قد تحولت من مدة بعيدة إلى بائع متجول يبيع الأحلام، حتى إذا ما رُغت إلى نفسي، وجدتني وحيدًا كئيبًا عاريًا كما نوماتي من حلم جميل يروي عطش الأيام. كل شيء حولي كان باهتًا مكرورًا لا دهشة فيه، وغرقت كدفق الأيام في الرتابة والتكرار..

أرجع كل يوم محملًا بأرغفة الخبز وبلائحة الطلبات التي تمليها علي «سوسن»، أملأ جيوبي من السكاكر واللبان والشوكولا التي يحبها أطفالي، وأنا على يقين بأنهم سينتظرونها دوني، وأنهم كما كل مرة سيستلمونها في فرح وحبور دون أن يضطروا إلى كلمة شكر أو لقبلة امتنان. أبدأ مسائي كما كل يوم بمراجعة الدروس لهم، أصلح الصنابير المعطلة، وأغير المصابيح المتلفة، وأعدل قارورة الغاز وكل ما يحتاج إلى تقويم، ثم أنكفئ على نفسي في مكتبي أنتظر الصباح كي أبدأ يومًا جديدًا تمامًا كالذي سلف، وطيفي الرابض هنا لا يشعل فضول سوسن ولا يستهويها الاقتراب منه، كأنني كتابة سومرية نقشت على جدران كهف، أو رموز فرعونية في أقباء الأهرام، أو لغز محير من بلاد أليس العجيبة..

..أخالها أحيانًا تخشى مني العدوى، أو أنني مسخ مشوه يفزعها، أنظر إلى نفسي في المرآة من حين لحين فلا أرى شيئًا غريبًا فيّ ولا شيئًا يدعو للفزع، صحيح أن شعري بدأ يشتعل شيبًا؛ لكن الشيب لم يكن يومًا

ليفزع، ثم أنا مازلت في منتصف عقدي الثالث، والكثير ممن حولي ممن هم في سني لم يتزوجوا بعد. قسمات وجهي الكالحة الواجمة، وعضلاتي المفتولة القوية، وقامتي الطويلة بمنكبين عريضين؛ قد تكون السبب في جعل من يراني يظن أنني جاوزت الأربعين بأعوام، ولربما هو حزمي، ولربما هو حزني، ولربما هذه الابتسامة التي غادرت وجهي..

لا شيء فيّ يفزع أو يُنفِّر، لكنها لم تكن تراني، كانت ترى شيئًا آخر.. رصيدي بالبنك وحافظة نقودي..

كمّ الاستشارات أنتظرها تمامًا كما تنتظرني، لربما هي الشيء الوحيد الذي أصبح يزرع فيَّ الحياة ويجعلني أمارس طقوس انتظار المجهول، أوزع عبرها بسمة لثغر كئيب، وحلًّا لمشكلة قد أرهقت ملدوغًا من عقارب الحياة التي ما تفتأ تنفث سمها على عابري دروبها، أصلح بين الأزواج، وأعلمهم مبادئ الحب والسماحة والانسجام، أعيد عجلتهم الحائدة للسكة، أمسح دمعة زوجة تنكر لها زوجها بعد طول عشرة، وأواسي تلك التي سلمها للوحدة أو لأهله يشاركونه فيها، أخطط لها كيف تستعيد مملكة لا حاكم فيها سوى هو وهي، وعرش لهما أصنعه أعطره لهما بالأحلام، وأربت على كتف مهموم قد جعلت منه زوجته - تمامًا كما فُعل بي - مورد مال يحاول أن يشبع نهمها الذي لا ينتهي..

وألوذ إليّ بعد كل تلك الرحلة، أصارع دمعة قد علموني يومًا أنها لا تليق بالرجال، أتدحرج داخلي ككبة خيط وأتكوم دون الأنظار، أنظر حولي في توجس، وأذرفها في خلسة ثم أستكين سويعة قبيل الفجر أتهيأ ليوم توأم للذي مضى..

رغيف خبز أنا وبضع سكاكر، وبطاقة بنكية، وقطعة أثاث في زاوية بيتي وأسورة تزين معصم زوجتي وبعض أحلام لها لا تنتهي..

هذه هي الحقيقة التي يجب ألا أغمض عنها عيني..

يكفي ألا يروا فيك سوى قطعة المال التي تجلب لهم السعادة لتتحول في لحظة إلى صنم مشوه، إلى نبع متدفق على الدوام يجب ألا ينضب، إلى لوحة زيتية حكم عليها أن تبقى مصلوبة على الجدار تستقبل نظرات الزائرين وتدخل ببهجة ألوانها البهجةَ على الناظرين، وتبقى هي هكذا كل يوم تحت الشمس وتحت الظل وتحت الضوء وتحت الظلام مصلوبة لا تفعل شيئًا سوى إغراق الوافدين في الدهشة..

عيناك قرصا عملة، ووجهك لا يعدو أن يكون قطعة نقدية عملاقة، صماء صلدة تصلصل، تبرق في وجوههم فيبتسمون، وإذا ما خَفَت وهجها يومًا؛ كان لك منهم الخفوت..

لغة الحوار بينك وبينهم تتلخص في فعل رباعي لا يمكن بحال أن

يعبر عن رغبتك أنت، يبدأ بهمز المتكلم وينتهي بدال، وبينهما راء وياء، يختم على فيك ومعه على ما تبقى في جيبك من أحلامك لينعش أحلامهم وأمنياتهم السرمدية المتوغلة في لجج الشراهة والرغبة وحب الامتلاك..

تمر قرب المتاجر المخصصة للرجال؛ فلا تستهويك ربطة عنق ولا يغريك دبوس ولا ساعة معصم ولا بذلة رياضية أنيقة تقتنيها لعطلة الأحد، تريد فقط أن تشتاق عيناك لشيء معلق على واجهة المحل، تناغيه وتناجيه، وتجعل من راتبك جزءًا مخصصًا له، فتغدو عينك خامصة وتعود ظمآى..

لا شيء يغريك، ولا تعنيك في شيء تلك المتاجر..

لم تعد تعنيك في شيء..

وحتى رفاقك في العمل، وحتى أولئك العائدون توًّا من رحلة سماها المخدوعون ببريق الحياة بشهر العسل، يصبحون في غضون شهور قد لا تعد على رؤوس اليد الواحدة صورة مطابقة لك، فلا ترى بصيص أمل في عيني ناج من دوامة، ولا خارجًا عن منظومة صنعنها وأُرغِمنا على مضض على الغرق فيها، منصهرين تحت آلة الزمن، قد سحقتنا عبارات الطلب وأفعال الأمر وكلمات التوق والشوق والتشوف لكل معروض جديد ولكل بضاعة حديثة، وجوههم عملات أيضًا تمامًا كما جيوبهم، هذا عملة محلية والآخر فلس والآخر صاغ والذي بقربه

درهم ومن يليه بوجهه المسطح ورتبته ورقة مالية قديمة مكمشة عاثت فيها أعاصير السنين..

أمس، كان يومي طويلًا بين أروقة ملابس الأولاد للعيد القادم خلال أيام ومتاجر البضائع ومحلات العطور والأحذية النسائية، تمنيت في لحظة أن أتحرر من وجهي ومن عيني اللذين يتقنان البحث عن كل شيء لهم، وليس لي من بحثهما نصيب، حتى إذا ما جن المساء، عدت وقد حملوا كل ما يشتهون وزدتهم مني الهدايا، واستلقيت فوق سريري خاوي اليدين من بدلة العيد، تمنيت حينها لو فتحت عيني على هدية من سوسن خبأتها لي للمناسبة، تراءى لي وجهها وقد أشرق حينما حصلت على خاتم الزمرد الذي كانت تشتهيه وهي تعلم أن الخواتم ما جعلت لعيد تجتمع فيه كلفة التموين مع كساء الأولاد وكبش الأضحية، لكن شيئًا من ذاك لم تكن تفهمه، كنت على يقين أنني كنت أعرض نفسي لأن أمضي ليلة العيد ببيت والديها أراضيها كي لا يمضي الأولاد العيد كئيبًا، كما كنت على يقين أنها لم تكن لترضى إلا بذات الخاتم أطيب به خاطرها وأغريها كي تعود..

اختصرت كل ذاك العناء في شيك وقعته باسم الصائغ وشريت النكد بجرة قلم أزرق. تمنيت أن توقفني أمام واجهة «تمبرلاند» أو «بيير كاردان»

أو «لاكوست» أو «بولو» تحثني على اقتناء شيء جديد، تشجعني وتفتح شهيتي للشراء، لم تكن لتدفع من جيبها هي شيئًا، لكنها لم تفعل..

غرست وجهي في وسادتي ودمعة مشاكسة تنكزني، وسبحت أجلد نفسي على ما ألت إليه، وفي لحظة تحول وجهي الرصاصي من قطعة نقدية صلدة إلى قطعة لحم، تحسست خدي وعيني وجبهتي، فإذا منابت الشعر تشك أصابعي وإذا بقطعة اللحم المغروسة تحت المعدن تند، تعاند وتخرج من بين شقوق وجهي كشتلة سقتها الدمعة فنبتت كما تنبت الطحالب بين نتوء الصخر العنيد، تلألأت دمعة أخرى، وقررت في رمشة عين، تمامًا كما ذلك القرار الحاسم لجنين لم يراع الليل فقرر فجأة أن يرفس بطن أمه بقوة، وأن ينسحب من بين شقوق الظلام إلى رحابة الوجود، قررت؛ وأنا بكامل عقلي ووجداني منذ تلك اللحظة؛ أن أعتنق اللذة، وأن أمنح نفسي حظًّا من راتبي ومن وقتي ومن رحابة الكون حولي، قررت أن تستمد الشمس فجر هذا الأحد وهجها من إشراقتي، ووعدتها أن أبتسم لها وأن أخصص صباح هذا اليوم لي، لي وحدي أطوف بين متاجر الرجال وأقتني بدلة وحذاء رياضيًّا لصباحات السبت والأحد يومي عطلتي الأسبوعية، وأن أنتزع وقتًا لأقتني ساعة يد رياضية جميلة تليق بي وبسني، وأن أنتقي ربطات العنق التي ما اقتنيت منها مذ تحولت قسمات وجهي لخطوط عملة نقدية..

وقررت منذ اليوم أن أصبح صارمًا وأن أتدرب على الرفض والشجب، وأن أمرن حبالي الصوتية على تلك الكلمة البسيطة المكونة من حرفين، لكنها تصنع الحدود وتحسم الأمور وتكون الفيصل في الكثير من القرارات..

قررت أن أمتنع عما لا أريده وأن أقول «لا» ملء شدقي أمد بها صوتي في حزم، أقمع بها التطلعات الجشعة وأمانيها العنيدة..

وقررت منذ اليوم أن أبتسم..

# 12 – بعد أن أسدل الستار

لم يدر بخلدي للحظة أنني سأستطيع يومًا أن أفرط سلاسل الإدمان، وأن أنتزع الخناجر المشكوكة في رشق جسدي؛ أنقب بها وبأظافري وبأسناني وبالشوك النابت في أحداقي؛ جدران سجني الأزلي الذي علمني – متأخرة – أن إدمان الغياب يسرق الإحساس، وينهب من الجسد تفاصيل الجسد وجزيئات الروح، ويعلمها كيف تفترش الخمول والخنوع وكيف تتوسد الاتكال، وكيف أن الهروب الذي تحتمي به من المواجهة لا يعدو أن يكون جبانة وتخديرًا وسلوة يصحو منها القلب مثلما كان أو أشد عناء..

لم أكن أعلم أنني سأعيش بقية حياتي– كما كل الناس – في مبعد عن المسكنات وعن ارتياد عيادات الطب النفسي التي امتصت لوني وجيبي، وبرمجت كل تفاصيل حياتي حول أيام جلساتي الاستشفائية المتكررة خلال الأسبوع، وجعلتني لا أتعرف على ما يدور حولي، ولا يكون لي من ردة فعل إلا طبقًا لتوصيات الطبيبة، وتبعًا لما تتركه العقاقير مني من شعور وإحساس..

ولم أتوقع يومًا أن عوْدَته ذات اعتياد ستجعل الصبر يلفظني، وستجعل مصانع الجَلَد تحجم عن الإنتاج..

وبأنني سألفظه وسألفظ عهوده المستجدة وسأترك يديه الممدودتين ينهشهما العراء، تمامًا كما نهشت الوحدة والغياب روحي وجسدي اليباب..

***

الرنة الثامنة للساعة الحائطية تعني آخر قرص مهدئ يومي، وتعني فيما تعنيه أنني سأُخضع نفسي مرة أخرى – وككل ليلة – إلى رحلة اضطرارية غائبةً عن الوجود لساعات لا تقل عن العشر..

والصبح امتداد للغياب وللهروب..

أرمق عيني أمي المنكسرة كل صباح وأنا أسلمها – في حركة ميكانيكية – أولادي الثلاثة أمام بيتها، يرتمي الطفلان في حضنها الدافئ يشتمّانه ويمطرانها قبلًا، ويفتح الرضيع نصف عين على صوت جدته الحنون فيغمضها مرة أخرى مبتسمًا وهو يتمطى كي تحمله بين ذراعيها. أسلمها مدللها الصغير وأغراض الأشقياء الثلاثة، فتعبق – كما كل يوم – بتلك العبارة التي ألفتها مذ قررت ألا وجود للخادمات ببيتي، وأن أترك لها أولادي بداية كل صباح:

– «لا أعلم لم تصرين على أخذهم مني كل مساء لترجعيهم بعد سويعات!؟ تتعبين نفسك وتتعبينهم..»..

في صمت أقبل يدها وجبينها بابتسامة متكلسة، فتهطل علي دعواتها

تبلل جفاف روحي الغافية، ويغمرني الدفء وتتغشاني السكينة ويتدفق صوتها الناعم الصادق الدافئ يتسرب في مسامعي المتحجرة وفي تفاصيل جسدي كترنيمة صباحية لعصفور تائه قد عثر على رفيقة، يصاحبني طول يومي، أستدفئ به من هذا الصقيع الذي يلف حياتي، أحتمي به من الصمت ومن نظرات زميلاتي المشفقة، ومن تكلس شراييني وتفتت تضاريس أحشائي المنحوتة بإزميل الحزن والغياب وكره الانتظار والاضطرار إلى التعلق بما نعلم قَبلًا أننا لا نفعل أكثر من التعلق به، وبأن إصراره على ألا يأتي أعظم من إصرارنا على انتظاره، نتعلق به حد أن نكرهه وأن نكره أنفسنا فيه، نريده؛ لأننا لا نستطيع إلا إرادته، ونكره أنفسنا فيه لأننا لا نريد أن نكرهه..

ألقي السلام على العم «حسين» وهو يرش حفنات ماء بباب دكانه الصغير، يشرق محياه لمرآي بابتسامة من بين شدقيه الفارغين، يخبئ دلو الماء خلف ظهره المقوس ويميط عن طريقي مكنسته العجوز المصنوعة من سعف النخل، يسألني في عجالة تفترضها لكنته الأمازيغية عن أمي وعن الأبطال الثلاثة وعن «الأحمد»، يكرر على مسامعي نفس سؤاله الذي طرحه أمس وأول أمس وكل صباح أصادفه فيه؛ إن كان أحمد لم يقرر بعد الرجوع من منفاه، فترد على سؤاله دمعة تنز من مقلتي كلما ذُكرت سيرة العودة أو الغياب، يهز رأسه ويتنهد كالمعتاد ويواسيني بمثله المعهود

وبلكنته الأمازيغية المحببة:..

- «إيييه! تتغير الجبال ولا تتغير الرجال، أعانك الله يا ابنتي، سيرجع، اذكري عني ذلك، سيرجع.. إيييييه! وحينها فيم نفع رجوعه، أبناؤه أحوج إليه ما يكونون الآن.. إيييه! الصبر، الصبر يا ابنتي! مولانا الله يحب الصابرين..»..

يقلب علي المواجع، وينخس بكل قوة الجرح الغائر، ويضرم في أحشائي ما تنزفه عيناي..

أحث الخطى إلى عملي غارقة في تفاصيل الأسئلة المكرورة على مسامعي بشكل رتيب كل يوم، وكأن الصباح وجد لينجب الأسئلة العنيدة، تلك التي قد لا تكون فخًّا ولا لغمًا، ولكن الرد عليها يفرض الكثير من المراوغة والكثير من الصدود، والكثير الكثير من المواجهة..

لا أعلم فعلًا لم لا أترك لأمي الأولاد ما دمت أصحبهم شبه نائمين مساء، وأختطفهم من عمق النوم ودفء الفراش وبراءة الأحلام كي أسلمهم لها مع إشراقة كل صباح، ربما لأنني لا أريد أن أرهقها أكثر، وإن كنت أعلم أنني حينما أصحبهم مساء، لا أفعل أكثر من مرافقتهم إلى أسرّتهم ووضع قبلات مرمرية فوق جباههم، خالية من كل إحساس، مفرغة من شحنة الأمومة التي امتصتها العقاقير ومحلت في دوامات الشقاء..

أو ربما كي أثبت لنفسي أنني أم.. أنني مازلت أمًّا رغم كل شيء..

أو لربما لخوفي من الوحدة مذ قرر أحمد الانتقال للعيش بمدينة نائية

يطل علي منها مرة كل شهر، يكمل مشروعه في التنكيل بروحي، ويترك لي من الذكريات ما يجعله لا يغيب عن بالي للحظة، أتذكره وأتذكر تفاصيله الرتيبة الأليمة شهرًا كاملًا إلى حين حسيس جديد من لهيب عذابه. رحل ذات قرار أناني متعسف على حين غفلة مني، دون وداع ودون أن يطلب مشورتي أو حتى أن يخبرني، جمع متاعه وحزم حقائبه وغدر وغادر، وأصرَّ على أن يكلمني نفس اليوم بمجرد وصوله ليخبرني أنه قد سافر، وبأنه مضطر للعيش هناك. استعطفته دموعي وصوتي المتهدج المنهك وبقايا روحي الشاردة أن يرجع؛ لأجل أولاده ولأجل عمر ذي العشرين يومًا على الأقل، لكنه أصر؛ لأكتشف بعد أيام قليلة أنه لم يكن انتقالًا إجباريًّا كما زعم، بل استقال من وظيفته وأنشأ مشروعًا سياحيًّا صغيرًا بتلك المدينة الشاطئية النائية، ومشروعًا أسريًّا جديدًا لا يعدو أن يكون زوجة جديدة غير مكبلة بصراخ طفل ولا بحمل ثلاثة أولاد..

كان قد خطط لكل شيء، حتى لترتيبي الأخير في قائمة المخبَرين بقراره، كلهم كانوا يعلمون، كلهم شاركوه فكرته وأوصوه ونصحوه وساعدوه وودعوه.. إلا أنا. لم يحمل لي الخبر سوى نجمة شاردة، وغمغمة المساء وصدى هاتفه المبحوح المستعجل، ينعي لي قراره، ويلزمني بالصمت وبالقبول وبالاستكانة، وبإكمال حياتي أبكي وأنتحب وأتوسل إلى العوائذ أن تفشي لي هسيس المساء..

تصر السنوات الحثيثة المستعجلة على أن تسرق مني الأحلام، وأن تلم ساعات الحزن وأيام الضنك وتلك السويعات التي كان من المفترض أن تكون سعيدة، تلملمها شعثاء ممتزجة متشابكة، لا تتخير منها ولا تنتقي، كلص الغسيل الذي ينهب كل ما يجده منشورًا في شرائط السطوح، ولا يعلم أنه قد نهب فيما نهب شراشف المطبخ وماسحة البلاط وملابس الدمى المحيكة بيد الطفلة ذات الست سنوات من بقايا أثواب منسية في الدولاب، تنهبها، وأنا مغيبة، منهكة، مطحونة، بين عملي وضجيج الأطفال المتنامي، وحاجياتهم التي لا تنتهي، وعقاقير الاكتئاب التي تمتص عودي، ومثولي بين أسمال الليل أنسج الغيوم وأحيك النجوم وأحاول رتق فتوق السماء فأثخنها ترقيعًا، وأرسم بين ذا وذاك لوحات انتظار عودته الشهرية، حتى إذا ما عاد انتظرت متى يرحل..

كم مرة قررت الانتصار لكرامتي ووحدتي بقرار انفصال، فهزمتني البراءة في عيون أطفالي الصغار، وفضلت الانزواء عن المواجهة، والاختباء في كيمياء الدواء أطلب السلوى في النوم وفي الغياب..

***

على ثالث الأثافي يضطرم الحنين، وتستوي أسئلة أطفالي العنيدة، تطير النوم من المقلتين، يكبرون ويكبر معهم السؤال عنه وعن غيابه وعن اضطرارهم ألا يعيشوا كما كل الأطفال، بين حضن دافئ ومحاجر تحميهم

من خفقة الغياب، إلى أن كفُّوا يومًا دون سابق موعد عن السؤال، دون أن أتنبه إلى أن ردودي المقتضبة العائمة لم تعد تشبع نهمهم المتنامي، ولم تعد تساير عقولهم الشابة التي نضجت على حين غفلة مني، وإلى أن لعبة التمويه والتصبير قد انتهت مدة صلاحيتها، بل لم يعد لها من قيمة باعتيادهم على الغياب. شنقوا طيفه وأودعوه باحة النسيان، واختزلوا الفرح بقدومه في ورقات نقدية يتسلمونها منه بداية كل شهر لتورق في عيونهم الحياة، كانوا أذكى مني حينما صنعوا قواميس لأبوته ورادفوها بالمال وبالغياب، ركنوها في دواليبهم الفارغة منه منذ أن علمهم الغروب كيف يئدون الأسئلة العنيدة، وكيف يطفئون فوانيس الانتظار..

طال رحيله.. وطال غيابي حاضرة.. والدقة الثامنة اليومية للساعة التي كانت تسدل الستائر على جفوني المتعبة، ما فتئت– من حينها – تنقلني من عالم الشهادة إلى عوالم باتت تعلم جيدًا دورها في التربيت على رأسي وفي قبولها لجوئي السياسي اليومي في غياب الأوطان..

والأطفال الذين كانوا يعانقون دباديبهم ومعها أحلامهم البريئة قبيل نومي، ما عادوا أطفالًا، خطفت مني براءتَهم الغربانُ الناعقة بالأحزان، وصرت أستيقظ صباحًا على بداية نومهم، وفقدت بوصلة عيني الطريق إلى عيونهم، وذاك البريق المتدفق من جفونهم والذي كنت أتحسس به العالم حولي فجأة قد انطفأ..

تغيرت كيمياء الكون حولي ذات استطلاع خاطف لغرف الأولاد، وتجمد الهواء في رئتي وتكلس الدم في عروقي المصلوبة، وتصلبت أناملي على قطعة بنية ملفوفة بعناية في غشاء شفاف، مركونة تحت ملابس الشتاء بالقرب من لفافات ورقية تترى، ورائحة التبغ الرخيص تنزف من قمصان عمر، مدللي ومدلل جدته الصغير..

لا أعلم لم كنت أصدقه حينما كان يخبرني أن تلك الرائحة المنبعثة من فمه ما هي إلا رائحة المقهى؛ حيث يجتمع ورفاقه لأجل الدراسة والتي كانت تعلق بكل نتانتها بملابسه. لا أعلم لم كنت مستعدة لأن أصدقه ولأن أعمي عيني عن رؤية وميض الكذب الذي ينز من عينيه، وعن تشظي كلماته المارقة من دواوين الصدق في مسامعي المكدودة، وعن طيفه الشاحب الممتقع وشروده الدائم. لربما لأن تكذيبه يعني كشفه ويعني ضرورة المواجهة: مواجهته هو، ومواجهة والده المتملص من كل الأعباء، وضرورة اتخاذ إجراءات صارمة حيال هذا الوضع الجديد المتلف لما تبقى من أعصاب..

نفس صوته العائم النائم البارد الذي كان يستقبلني به كلما زففت له شوقي لرجوعه، وكلما شكوت له قسوة الأحوال حولي، ومن مسئوليات باتت تقصم ظهري الممزع، أو مرض أحد الأولاد أو تعثره في دراسته، نفس الصوت ونفس النبرة ونفس المقطوعة الموسيقية المعزوفة على نوتة

واحدة؛ يشنف مسامعي وأنا أتهدج بكل ما أوتيت من ألم ولوعة وأخبره بأن عمر ابننا قد صار – في غيابه – مدمن مخدرات، وبأن التدخل الآن لابد أن يكون لرجل مهيب صارم لا لامرأة مطحونة..

صوته البارد القادم من دهاليز الأرض السابعة ينفضني، وبرودة أعصابه تشعل في أحشائي براكينَ وحممًا، تمسح عن عيني غشاوة ما فارقتني طوال سنين، تنفض عني كل أغبرة السنوات المتصرمة، وتحطم بمعول الخطر خزفًا مسنونًا شكل طيفي مذ سلمني للغياب..

لحظات قوة جميلة تلك التي تستمدها من بعد حول الله وقوته من إصرارك – رغم كل شيء – على الحياة، تُقفَل كل المعابر بوجهك، وتشيَّد كل الأسوار، وترقَّع الطرقات تحت خطاك بكل أنواع الحفر، والأيادي التي كنت تروم منها إنقاذًا؛ هي نفسها التي تجتهد كي تغرقك..

ورغم كل ذاك؛ تصر على أن تبقى ها هنا..

مازالت تلك الصرخة التي أطلقتها أعماقي يومها وأنا خارجة من عيادة الطب النفسي تباغتني بين الفينة والأخرى، وكأنها تذكرني بالصمد وبالثبات، وبأنه قد مر عليك أسوأ مما أنت فيه الآن فكان منك الرضا وكان منك الإصرار على أن تبقي ها هنا. أقفلت يومها خارجة وأنا غير راضية على جلسة لم أفعل فيها سوى أنني بثْثُ قليل همٍّ وقليل شكوى بابني وبزوجي، نصف الوقت المخصص لها كان بكاء مريرًا، وكان علي بعدها

أن أكون رهينة أقراص جديدة منها النوم ومنها الصمت ومنها شهية الأكل ومنها أن أبقى مغيبة عن المشاركة في الحياة..

رفضتها ورفضت من يومها أن ينصت إلي أحدهم مقابل مال، تمامًا كما صنم بالقرب لا يحس بك ولا يكلف نفسه عناء أن يعيش معك الأحداث، ينتظر في صمت أن تنهي حديثك؛ بل يقطعه بنظراته المتتالية لساعة معصمه يستشيرها إن كانت قد انتهت حصتك في البوح وفي الكلام، أو بسؤال يبعثر سمط كلماتك ورصف الأحداث. أعلنتها لا يومها، لن أحني للهمّ جبهتي، ولن أرضخ للأحداث أن تصنع مني مومياء..

ومن ذلك الحين، وأنا مضطرة لأن أمضي حياتي بين الرجات أواجه الشظايا وأجاوز الحمم، ومن يومها وأنا كلما رأيت الضعف يستلبني، أرج تلك الصرخة فتتفتت قربي بها الصخور..

وتدثرت بحياك الصرامة الموشاة بالحكمة والحنان، وتسربلت وحملت أسلحتي العتيدة وتأهبت للمواجهة، وحدي، كما فعلت يوم هاجت عليه حمى أول تطعيم، وحينما ألهبت جسده الغض عند إنبات الأضراس، وحين الختان، ويوم نهش رجله كلب الجيران، ويوم خوفه من أول امتحان، وحينما كنت أنتظر معه بلهفة نتائج الباكالوريا، وحينما دهسته طفطافة، ويوم خرج أول مرة بسيارتي وتأخر..

وحدي.. مستعينة بمن مدني بقوته وعونه سبحانه، حتى قشع بياض

وزرة «علي» في عيني كل من رآه، وتلألأ حرف «الدال» في شموخ يتقدم اسمه الجميل ذا الحروف الثلاثة، وصفقت الجموع ومعها قلبي لـ»خالد» وهو يستلم شهادة التخرج من الأقسام التحضيرية للمهندسين..

وحدي..

ولأول مرة مذ وعيت بأنني وحدي؛ أحرق مراكب الانتظار، وأحطم المنارات وأشرد المرافئ وأكفكف دمعي والأوجاع، وأكتب قصائد بوحي العتيق ببقايا دمع محتضر وبشظايا روحي المنتشرة كأشواك صبار، أواسيني وأدفن الوجع بين الحروف وأمارس بينها طقوس الموت كي أولد من جديد، أربت على كتفي في لطف وأخاطبني كلما وهنت:..

يكفيك وجعًا ..

ليت الأوجاع..

ترجع حمرة الشفق ..

إلى خدي..

تنسف جرحًا قد اعشوشب..

يسفح بسمتي ..

عن قصد..

تكفكف دمعًا ..

قد صار عن جدارة ..

أشجع جندي..

تلاحقني الذكرى..

تهاجر بي عبر المدى..

فأعانق الجراح..

وأخلف مع الفرح ..

وعدي..

وكنت وحدي..

ألف القفار..

أجوب الفيافي..

أبتلع الأشواك..

تارة في نحيب..

وتارة في صمت..

فلا العويل..

يهدئني..

ولا الصمت..

يهدهدني..
ليت التناسي..
يجدي..
في كل ربع..
كنت وحدي..
في كل قفر ..
كنت وحدي..
في كل زاوية..
كنت هناك..
أبتلع الغصاصة..
وتسكن الآلام ..
وجدي..
في ركن.. رسمت نحيبي..
وفي آخر.. زمجر رعدي..
في زاوية.. نسجت كفنًا..
لحلمي الوردي..

وفي آخر استقبلت العزاء..

آه يا وجعي.. في فقدي..

وحدي..

والعمر يجري..

وحدي..

والألم يسري..

في كل ركن..

في كل قفر..

في كل زاوية ..

كنت وحدي..

بين من اجتثوا..

ضفيرتي..

وسفكوا..

أنشودتي..

واقتلعوا الرموش..

من جفون قصيدتي..

ومن رقصوا على جراحي..

واستباحوا ظلمًا..

جلدي..

راموا هزمي ..

واقتلاع مجدي..

آه يا قافيتي الموجوعة..

المحمومة..

الموبوءة بداء الفقد..

يا ذاكرتي المصروعة..

الموشومة..

الموصومة بالفرقة والبعد..

يكفيك وجعًا..

ليت الأوجاع ..

ترجع حمرة الشفق إلى خدي..

وتصب الترياق ..

لتبعثني من فقدي..

وترسم أحلامي..

بألوان القوس..

تعطرها..

بعبق الورد..

يكفيك وجعًا..

إن الأوجاع..

لا تغني..

ولا تجدي..

كفكفت أدمعي ونفضت العجز عن كتفي، وأقنعت ولدي برحلة العلاج، وتضوعت روحي من نسيم «عمر» العائد من رحلة موت زؤام..

عاد عمر..

وعدت إلي..

لم يخطر ببالي لوهلة أنني سأستمتع مرة أخرى برؤية طيفي في المرآة، وأنا التي كنت سجينة خطوط الزمن المتقاطعة في أديم وجهي تنقض مواثيقي مع المرايا..

تلك التجاعيد المحفورة قبل أوانها قرب الجفنين وحول الشفتين

قد يكون سببها تيك الابتسامة العميقة التي يلفظها الحزن، أو حتى تلك المرمرية التي يتكلس منها الوجه فتتشقق كل مزعة منه كلما حاولت المشاركة في التمدد والتقلص، أو لربما ذاك الوجوم في انتظار إطلالة الفجر كي تشرق من محياك شمس الصباح، بيد أن الأخاديد المحفورة على الجبين؛ لا شيء يَنْبُشُها سوى الذاكرة الموشومة بالوجع، لا شيء يلْحدها سوى المكوث على أرصفة الانتظار وأنت تعلم ألا شيء فيك سيتغير، وألا بوصلة ستغير وجهة القطار، وألا قطار سيرغمك على الركوب ما دمت لا تؤمن بالأرصفة ولا بالمركبات البديلة ولا بالبوصلات التي ترغم أصحابها على تغيير المسارات..

لم يدر بخلدي للحظة أنني سأجد يومًا مبررًا للبحث عني وللاحتفال بالنجاح، وأن مراياي ستلتقط مرة أخرى تفاصيل وجهي، تمامًا كما كنت أفعل من سنين قبل النكبة، وسأدهش كما تفعل كل النساء وهن يتحسسن تفاصيل وجوههن بأناملهن الرقيقة الناعمة؛ يذكرن أنفسهن في كل مرة بتلك العبارة التي تمسح عبث الشقوق وتكتم سر التجاعيد العنيدة، أترنم بها:

«يذهب الجمال وتبقى حروفه»..

فتشرق ابتسامة من بؤبؤي تزف المرود لجفوني، وتتعطر من كحل عادت له بعد طول موتٍ الحياةُ، وأستقبل شقوق وجهي بمرطب البشرة الثمين الذي استعضت به من بين ما استعضت به عن عقاقير الاكتئاب

وأدوية التوتر والانهيار..

***

عاد عمر..

وعادت روحي..

وعاد «أحمد» ذات مساء موغل في فسيفساء التناسي، وذبالة الشمس الناعسة تعلن عن نفاد قمح البيادر، ونحيب العصفور الحزين يلهب قلب العشي، يشطب خضاب السماء، يدثرها بنسيج الليل الزاحف بين رموش النجوم..

عاد يجر حقائبه ويجر خلفه شيباتي ولوعات السنين، ينبئني أنه قد رجع، تتدافع حروف عباراته الموغلة في اللاشيء؛ والتي يأبى شيب شعري وأخاديد الغياب المحفورة على جسمي وفي نتوءات روحي وبين مفاصل الصخر المتربع فوق الشريان؛ أن يبتلعها، تتدافع في جرأة وتطاول واقتحام كي تصلصل في مسامعي الصماء:

– قد عدت لكم! قررت قرارًا رسميًّا نهائيًّا لا رجعة فيه أن أبقى معكم.. وألا أعود إلى هناك..

تنز من عينيه الخامدتين ابتسامة موناليزية قبل أن يتمتم وهو يتفرسني:

– وأنا على أتم الاستعداد أن أعوضك عما سلف..

تتجمد العروق لوهلة في لساني، ويتوقف النبض ومعه البصر، ثم ما يلبث

صدى قعقعة حروفه يصفعني، ينثرني، يذروني ككومة سنابل يابسة، كعرجون نخلة خاوية، كبقايا عطر أنثى محل من طول الغياب ومن لوعة الانتظار..

ينظر في عيني الفارغتين منه، فيخبره ومضها المنطفئ أنه قد تأخر، قد تأخر كثيرًا..

ماذا كان ينتظر؟ أن أستقبل بأحضاني وبرمشي وبشرياني عهوده الماحلة القادمة بعد موت الزنابق وهجرة النوارس وشطوء طلع ما سقاه!؟..

أن تبتسم الشمس من شفتي، وأن يكتحل المساء من عيني، وأن يعبق الجوري من عطري وأنا أنط فرحًا لهذا الوفود!؟..

لم يتوقع يومًا أن عودته ذات اعتياد ستجعل الصبر يلفظني، وستجعل مصانع الجَلَد تحجم عن الإنتاج..

وبأنني سألفظه، وسألفظ عهوده المستجدة، وسأترك يديه الممدودتين ينهشهما العراء؛ تمامًا كما نهشت الوحدة والغياب في غيابه روحي وجسدي اليباب..

قد عاد..

لكن بعد أن أسدل الستار..

# 13 – جدار

الشبّاك الذي صرعه الريح انفتح على غرفة باهتة يعوي فيها اليأس والخوف والفراغ، وكفن ابتلع في نسجه رفات الأمل والأمان..

منزوية كانت، مفترشة الأرض والخيبة؛ تفكك ضفائر ابنتها ومعها أحلامها في حياة تليق بآدمية، يائسة منهزمة ساكنة.. عدا صوت النشيج المنبعث من شقوق روحها الكسيرة، تتحسس تارة وجهها المكور المكدوم الممتلئ بالقهر والإحباط، وتارة تلمس عينها المتورمة في وجل تدعكها بظهر كفها،عبثًا تحاول أن تكتم ضجة روحها، فتأبى حنجرتها إلا أن تتشظى بذلك النحيب الذي بات يكتم منها الأنفاس..

هطلت فجأة بوادر المساء، ظِل الرحيل يتمدد قربها، يزحف رويدًا رويدًا ليكتسح الجدار وبقايا ملامحها؛ يواري جفونها الملتهبة..

عاصفًا كما الإعصار اقتحم باب الغرفة، وكل براكين الشرور تنز من بؤبؤيه. تقدم خطوة ثم أسند ذراعيه وكفيه للباب، عين على حقيبتها النازحة المزروعة وسط الغرفة، وعينه الأخرى على انكسار ذبالتها على الحائط خلفها وتحتها على الأرض الممتقعة هذا المساء..

توثبت الطفلة تستجدي حضنه، تجره من يديه منادية أن يحملها إليه، لكن عينيه كانتا غارقتين في تفاصيل الوجه الكالح والملامح الكسيحة المصلوبة أمامه؛ تمتصان منها حد الثمالة نبيذ الانتصار..

- لم عدت؟ ألم تقسمي على الرحيل؟..

رفعت رأسها تنظر في يأس إلى ومضات الشر المتراخية من عينيه. تَدافَع الشفق يرخي جمره بالقرب منها على الجدار، ونظرتها الواجمة قد شردت تعبر محطات انهزامها وتستجدي عينيه أن يمنعا عنها هذا الوميض..

أسعفتها دمعاتها فغرقت في نشيج عقيم، وغرق المكان في أزيز محمل بالأشجان، أسندت ظهرها للجدار، أغمضت عينيها في انهزام، واستسلمت لليل المنبثق من جفنيها ومن سجن صدرها ومن وراء الشباك، في حين استمرت الطفلة في جذب يدي أبيها بكل قوتها، حتى إذا ما استيأست من صدره احتضنت ركبته بكفيها البريئتين..

- ألم أقل لك سترجعين؟ ستجوبين الفيافي وستلفين القفار وستقطعين البحار، ثم ستعودين ورأسك تحت قدمي..

فحيحه ينفث في ضلوعها السموم، يخترقها، يسكنها، يتلبس كجني بروحها الممتقعة، تغادر عيناها الغرفة في لحظة بحثًا عن مرافئ الأمان، تحمل حقائبها وتشرع مراكبها بحثًا عن جدار تسند إليه ظهرها عوضًا عن هذا الإسمنتي الذي ألجأتها إليه الأيام، عن وطن يحميها من هذا المسخ

الماثل أمامها، من هذا الغول المتحين استباحة عظامها بعد أن التهم منها الروح، تطوف لاهثة عمن يسند ظهرها ويحمل عنها حقائبها ويمسح الليل عن جفنيها المتعبتين..

يتقاذفها الموج العاتي وتجري ريحها بما لا يشتهيه مركبها المهزوم، يتلقفها المد، يسلمها للجزر، تطول الرحلة ليلقي بها اليم بالقرب من شاطئ أبيها..

ينطفئ فجأة وميض المنارة بالقرب من المرفأ العتيق، لا شيء سوى الصمت الرهيب يشقه عويل الرياح، وأنين منارة الحي المتآكلة؛ يخرق ومضها نسيج الليل البهيم، ونحيب بقايا حطام مركب يرتطم بجذعها لم يبتلعه البحر بعد، والجدار خلفها تسند إليه ظهرها، وشظايا حروف تكسرت على الشاطئ؛ فأنجبت صخرًا وشوكًا..

- «ليست من صلبي من تعود حاملة حقائب الانفصال..

ولا بداري مكان لإيواء الراحلات»..

# 14 – مات الوطن!

حينما قرر ذات يأس أن يبحث عن وجه الصباح خارج المدار، وأن يلثم جفون الورد في خميلة تحتفي بالورد؛ حزم حقائبه ليلًا، وعند الإصباح؛ ولى ظهره للوطن..

وطن الحزن والفوضى والدمار، وموت الإنسان في قلب الإنسان..

كانت العصافير ذاك الصباح صامتة شاحبة قد سرق شدوها الرصاص والدخان، والورد والشجر والحجر والمدر كان غارقًا في الدماء وفي الأشلاء، والدمع قد حفر الأخاديد في كل الشوارع، في كل المنازل، في كل القلوب..

يبتلع ريقه على مضض، فتنبت في حلقه غصة وحصائد عوسج، يحاول أن يدير وجهه عسى شيئًا يثني خطاه، فيغرق كل شيء خلفه في لجة حزن ويأس، ويرى كفوف كل شيء حوله تودعه، تبارك هذا الرحيل..

لا تعلق.. لا أمان.. لا انتظار..

لا بصيص نور ينتظره يجدد فيه الأمل، عدا نور الكهرباء المنقطع ساعتين كل ساعة، والوقفة اليومية في طوابير البنزين، وجمعيات الخبز

واللحم والمشارح، حتى ما منه نسج الأحلام قد سرقه هذا الوطن..

تمنى أن يرى دمعة تستبقيه، وجه خليلة تستجدي بقاءه فيصبرها بعودة حثيثة، أو ضفيرة أم مضمخة بالحناء تشعل فيه الحنين، أو منديل صديق قد نقش فيه أول حرف من اسمه يدسه في جيبه كي لا ينسى الوداد؛ فلا يجد. كلهم قد رحلوا قبله، كلهم قد انفضوا ذات دجيج، حصدتهم آلة رعناء حينما قرر الإباء يومًا أن يشجب الظلام..

تتراءى له خطيبته التي كان سيحملها بُعيد العيد على حصانه يزفها للأحلام، قد زفتها أيادي الغدر لتربة ممسَّكة مضمخة بدماء المغدورين، انتحبت حمامة تلك الليلة وشجن الكروان، وزغردت دبَّابة تحتفي بالأشلاء ورصاصة عمياء تنقش في جسمها حناء عرسها، صوتها كان رخيمًا ترفع الشهادة، وصوته ابتلعته الدهشة والصدمة والانهزام، مهزومًا كان أمام بسمتها الأخيرة، مهزومًا كان أمام نظرة في عينيها هادئةٍ صامتةٍ لا تستجدي الإنقاذ، لم تكن تريد أن تعيش في وطن تموت فيه كل يوم قبل أن تموت، ويموت الكون حولها في عينيها قبل أن يُنجَب، لم تكن تريد أن تموت مرتين، ولا أن تعيِّد مرتين..

يعانده طيف رفيق دربه «مهند» الذي كان هنا يحجب الغيم عن المساءات فينبت القمر، ويغرد بصوته الشجي فينصت الطير لشداه، ويجعل الصحبة في عالم الوحوش منسمة بنكهة المطر، و«حسام» الذي قد غيبوه

عن العيون، وأمه التي ماتت حسرة على أبيه الشيخ الهرم المهزوم بصقيع الوحدة في المعتقل، وجمر ذاك الإحساس المتنامي بالظلم؛ كان ينجب كل يوم في حلقه شوكة، وكلما أراد اقتلاعها نبتت له كما التنين شوكات عصية تنجب شوكًا، غصة بها قد رحل دون أن يرى الشمس مرة أخرى تشرق في سماء هذا الوطن..

كلهم قد غابوا.. وبقي وحيدًا هنا، كأنهم أبقوه كي يخلد الوجع في شريانه ذكراهم..

مات العيد هذا العيد..

ماتت الأحلام على الشفاه..

مات الوطن!..

اقترب من المركب يحث الخطى، وظله المختفي مذ قرر الرحيل، ووجع الأيام تحمل معه الحقائب. والأمن الهاجع، وأطياف من رحلوا، والسماء المثقلة بالرصاص، وبوح ثمل قديم، وحضن مجهول يستبق الخطى كي يرتمي فيه..

لا يعلم إن كان سيضمه، سيستوطن في أحداقه أم أن الأوطان قد أدمنت لفظ الشعوب..

يريد فقط أن يتحير، أن يتردد، أن يوهم نفسه أنه باق هنا، وبأن السحابة

السوداء ستنجب شمسًا ومطرًا، لكن التردد العنيد يعانده، لا يريد أن يبقي له ما يدعوه لاختيار البقاء..

يحاول– عبثًا – أن يتذكر اسم هذا الوطن، أن يسترد رسمه، فتنبت في عينيه جثة وأسلاك وأشواك وردة..

يختلط صمته بعويل المركب المتحين الرحيل، ينتزعه من تحايله المكشوف على التردد، تلتحم خطاه بخطى الهاربين من الأوجاع، يقيم سرادقات العزاء في أحشائه ثم يصرخ ملء الوجع:

«سوف أرحل..

قد ماتت الأحلام..

**قد مات الوطن!!**»..

# فهرس المحتويات